السابعة
بتوقيت زحل
مجموعة قصصيّة
محمد طلال النعيمي

السابعةُ بتوقيتِ زُحل

دار نون للطباعة والنشر والتوزيع

© جميع الحقوق محفوظة

رقم الايداع في دائرة الكتب والوثائق الوطنية ببغداد (٤٠٣٥) لسنة ٢٠١٨

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف

E-mail: muhammedyounes518@gmail.com

هاتف +964 773 455 2537

السابعةُ بتوقيتِ زُحل

قصص

محمد طلال النعيمي

إهداء..

إلى عيني الثالثة المؤطَّرةِ بالصدأ،

وحده ذلك الثقب الذي كان يصحَبني إلى الحياة عندما كنتُ مطارداً.

شكراً لك بابَ بيتِ جدي وشكراً لثقبك.

آرلنغتون[1]

"سلام قولاً من رب رحيم"، قلتها وأنا أدخل بيت أحد أقاربنا الواقع في أحد الأحياء، الذي يطل بواجهته مباشرةً على مقبرة التلفزيون بطولها وعرضها وموتاها، بحرٌ من الأموات وأنت على ساحله، منظرٌ ما إن يقع بصرك عليه حتى تشعر بأنك تعيش في برزخ دنيوي، أربعة أمتار فقط وأنت في أول منازل الآخرة!. كنت أول المعارضين على قدومنا إلى بيته عندما طُرح اسمه ضمن قائمة اللجوء الداخلي، لكن القصف الشديد على منطقتنا مع بدء العمليات العسكرية لتحرير الموصل، ساقنا إلى ذلك المنزل اللعين رغم أنوفنا.

وصلنا لسوء حظنا مع انطفاء النهار، استقبلتنا العائلة بحفاوة، وقدموا لنا العشاء، وبعدها الشاي، لكني صُمتُ عن السوائل خوفاً من حقارة مثانتي المعتادة التي توقظني عادةً في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، وحينئذٍ من سابع المحالات أن أذهب إلى الحمام، الذي يوجد في باحة المنزل الخارجية، وإن فعلتُ ذلك، فمعناه أني أفك زنقتي، وعيون آلاف الموتى تتربص بي.

انسجم الجميع مع بعضهم إلا أنا، كان التوتر يتلبسني وقدمي تهتز بقوة ١٠٠ درجة على مقياس المرحوم ريختر، أسناني تنهش شفتي السفلى بشراهة صائم مدمن على القلية، وجسمي ينضح عرقاً كجرّة ينز جسدها من كل جانب. فجأة دخل ابنهم الأكبر نجم وكان في بيت عمه، فانقض عليّ بالقبل، واعتصرني بين أحضانه، وطلى خدي بلعابه، كنت مستسلماً تماماً

له، أرقب باشمئزاز مخاطا متشبثاً بشعر أنفه الأفطس، ومجاهداً في الوقت نفسه في رسم ابتسامة ودّ على وجهي، يقرؤها الأحول ما إن يراني. جلس ملتصقاً بي يروي لي بطولاته في لعبة الكوتشينة، وأنه قد خصى المنطقة برمتها بهذه اللعبة، وأني سأشهد على ذلك بعد قليل.

استيقظ الظلام فدخل علينا نجم بعدما غاب عنا لنصف ساعة، أخذتُ فيها نفساً لأرتاح من فجاجته وبلاهته وسطحيته المميتة، أنهى خلالها عشاءه ثم عاد ماسكاً بيده ورق اللعب وهو يتفجر حماساً. سحبني من يدي خارج غرفة الجلوس مغتصباً إرادتي بالقبول أو الرفض قائلاً للجميع: "لا يظل بالكم إذا تأخرنا فنحن في الحديقة". اصفرَّ وجهي وجف حلقي عندما التقطتْ أذني مفردتي (إذا تأخرنا) وثارت دقات قلبي وتصاعد معدل نهشي لشفتي.

خمسة عشر قبراً أحصيتهم ونحن نسير باتجاه الحديقة وصوت نجم يجرش في أذني بأحاديث لم أفهم منها شيئاً؛ كوني كنت مشغولاً بمصيبتي غير مستوعب كيف أني سأنام اليوم في أحضان الموتى، وطابور من الأفكار المرعبة يقف مزدحماً ينتظر تطميناً. انطلق فجأة صوت ضحكات من وسط القبور، كدت أصاب على أثرها بتبول لا إرادي، فتسمرت وسِرب نملٍ سرى في جسدي، وشهقتُ وعينيَّ على شفا قفزة من محجريها، فانفجر نجم ضاحكاً قائلاً: "ذوله جماعتي لا تخاف مو ميتين". وجرَّني إلى مكان مسوّر بأحجار حلان يشعُّ منه ضوء مصباح برتقالي خافت حيث مصدر الضحكات.

دخلنا فاستقبلنا ثلاثة شبان يتكئ أحدهم على شاهدة قبر وهو يقضم حب عباد الشمس بشراهة، وآخران مستلقيان على حشيش يغلف أرضية المكان المسمى حديقة مع (چربابة) ينهش بها الصدأ تحت السور الأيمن لها، وأربعة قبور منتشرة هنا وهناك في مساحة لا تتجاوز الثمانين متراً مربعاً. شددت من أزري الممرغ بالتراب، وتبعت نجماً الذي عرَّفني بهم الواحد تلو الآخر، وكان من بين الأسماء نوفة!! تلفتُّ يميناً وشمالاً فلم أجد أي امرأة بين الموجودين فغمز لهم نجم وضحك الجميع. أشار أحدهم ويدعى صگر الحفار إلى زاوية المكان فإذا بقبر مستوٍ مع الأرض، تبرز منه قطعة حلان مهشمة مخطوط عليها بخط يد طالب مرحلة ابتدائية "المرحومة نوفة توفيت بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٩٨٩" فأدركت حينها أن الاسم يعود لأحد الموتى، إذ نحن بضيافة أربعة أموات.

تمتم نجم بسورة الفاتحة، ثم فرك كفيه ببعضهما، ومسح على وجهه وجلس، فعلت مثله لكني قرأت سورة الكوثر!. جلست معهم من جهة باب المقبرة وأنا أطوي ساقيَ إلى الخلف متلفتاً يميناً وشمالاً، فتعثر نظري بدخان يخرج من القبر الذي كان يتكئ عليه أحدهم فقفزت من مكاني مكبراً، قال أحدهم وهو يحبس ضحكته ويشير إليّ بالجلوس وموجهاً كلامه لصديقه: "خدر الچاي أبو حسين". عندها أدركت أنهم يعدّون الشاي على الفحم المتواري خلف شاهدة القبر، ثم بدؤوا يلعبون وأنا أحاول أن أمسك ما تبقى من أعصابي.

قال لي صگر الحفار وكان مستاءاً من وضع مقابرنا: "شوف مقابرنا وشوف مقابر تركيا وأمريكا تفتح النفس على الموت حدائق مو مقابر، أتمنى اندفن بيها". وأطلق وابلاً من الشتائم المشفّرة تناول بها الحكومة والمسؤولين، وخص بالذكر المتوفين، ووعد بنبش قبورهم ، فنهاه أكبر الجالسين أبو رعد عن التفوه بالكلمات البذيئة؛ بسبب وجود امرأة مستلقية قربنا ويقصد بها المرحومة نوفة، ثم قال وهو يرفع حاجبيه ويغمز بعينه: لولا هذه القبور لما أصبحت واجهة بيتك من الحلان يا ناكر الجميل "نص الونّاسات قطيتهم". ثم دخل على خط الحديث سليمان موجهاً كلامه إليّ: صديقي، المنطقة هادئة وجيراننا أحسن ناس، لم نسمع صوتهم يوما ما. قالها مبتسماً بخبث وهو يشير باتجاه القبور، ثم أردف: بس "القرچ" شوهوا سمعة المنطقة ونقلوا صورة سيئة عنها، كأنهم مصاصوا دماء يلقون بأنفسهم على سيارات الزائرين. هززت رأسي موافقاً رأيه وشربت الشاي، وتحدثوا طويلاً عن نزلاء هذه المقبرة وكيف توفّوا، وأين تسكن أسرهم، ومن أي العشائر والأعمام هم. ثم دقت الثانية عشرة وحان وقت العودة.

تكاثفت جميع الأفكار السوداء ما أن تعلق النعاس بجفني، وهجم عليَّ مشهد لأحد الأفلام المرعبة، الذي تدور أحداثة في قصر محاط بالقبور وجميع من في القصر أموات، لكن أرواحهم تجوبه، وتمارس حياتها الطبيعية، نظرت إلى نجم فوجدته جثة تشخر، نائم ذلك الشيطان قلتها بحقد، عندها اضطررت أن أطفئ عقلي وجسدي بزر فاليوم ٥ ملغم، كنت قد دسست أربعة منه في جيبي قبل مغادرتنا. استيقظت عند الخامسة على صوت حفر

ومعاول، فانتبه نجم من نومه قائلاً بصوت "شريط يعلس": هذا منبه المنطقة، لازلتَ جديداً وستعتاد عليه. ثم غط في نوم سحيق، غفوت وما هي إلا ساعة حتى علت أصوات تصيح: لا اله إلا الله. ثم بكاء وعويل وأنوف تمخط بقوة فعرفت أن نزيلاً وصل إلى داره الجديد.

بعد سبعةِ أيام اشتد القصف على مدينة الموصل ودخل الجيش المقبرة وتحرر الأموات قبل الأحياء. وللمرة الأولى في حياتي أرى السماء تمطر قذائفَ وقنابر هاون وصواريخ، والأرض تثور على من يطؤها لكثرة العبوات، مات صگر الحفار بقنبرة هاون ودفن في حديقة منزله، لم يتجرأ أهله على تشييعه ودفنه في المقبرة التي تبعد قرابة ثلاثمئة مترا عن مسكنه. تحققت أمنيته ودفن في حديقة ولو لفترة من الزمن، ما أغرب الحياة وما أصعب طلاسمها! هذا مشهد من مدينة تدعى (الموصل) تحولت حدائق منازلها مقابراً وبعض مقابرها حدائقَ !!

***

(١) أرلينغتون: هي مقبرة من المقابر الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية، تَقع في مقاطعة أرلنغتون في ولاية فيرجينيا بالقرب من نهر بوتوماك. تبلغ مساحتها ٦٢٤ هكتاراً. وفيها دُفن قتلى الصراعات في البلاد بدءاً من الحرب الأهلية الأمريكية وحروب سابقة أُخرى. وقد أدرجت المقبرة في السجل الوطني للاماكن التاريخية والسياحية.

التعويذة

ما إن طلّت الشيبة البيضاءُ برأسها وسط السواد الحالك الذي يعم رأسي، حتى ثارت ثائرة جدتي لأبي. حين لمحتها ببصرها الثاقب، حلفت برأس أمها (شوشة) بأنها ستضع حداً للعفريت الذي يركبني ما إن يُطرحَ موضوعُ الزواج، فأكرر مبرراً لها: بأن الوضع البائس للبلد حالَ دون ارتباطي بفتاة، فتعود لتسرد لي نذرها الذي ذكرته لي ألف مرة بأنها ستذهب إلى أمريكا عندما يموت بوش وتبصق بلغماً على مزاره العفن؛ لأنه أضاع مستقبل العراق! وبأنها ستدخن سيجارة سومر وهي واضعةٌ قدمها على قبره رافعةً علامة النصر.

يبدو أن أمي التي انفردت بها جدتي عند زيارتنا الأخيرة لها، قد تسلمت بعض التعليمات الصارمة، التي آتت أُكلها في اليوم التالي. ففي السابعةِ والنصف صباحاً استيقظتُ على شهقةٍ أطلقتْها والدتي تبعها اسم جارتنا (أم بلقيس)، انتفضتُ من نومي، دعكتُ عينيَّ فوجدتُها تقف فوق رأسي ماسكةً بيدها ورقة وإبرة، تشهق وتغرز الإبرة في الورقة في آن واحد، وتذكر اسماً وتتمتم مع نفسها! تداركتُ دهشتي ثم سألتها عن الموضوع، فأفهمتني جازمة بأنني مسحور أو محسود وأنها ستعالجني؛ لأن القطار بدأ يفوتني. أحسستُ لوهلة أنها تطرد شيطاناً قد تلبَّسني، فتمتمتُها التي ترتفع وتنخفض جعلتني أتذكر مقطعاً من فيلم التعويذة المرعب. ثم تناولتْ عود ثقاب وأحرقت الورقة التي ملأ دخانها الغرفة، وتركتني لموجةِ سعال اقتلعت رئتي، ثم رحلت عني وهي مليئة بالأمل.

عند المساء فاتحتني والدتي بموضوع الـزواج وعرضـت عـليَّ قائمـة بأسماء وصِفات بعض الفتيات وقالت بـأني في حـال مـوافقتي عـلى الفكـرة ستجلب البوم صـور مـن إحـدى فـاعلات الخـير وهـي صـاحبة صـالون للحلاقة؛ لكي انتقـي مـن القائمـة زوجتـي المسـتقبلية، وأدخـل المؤسسـة الاستهلاكية المسماة بالزواج. رفضتُ كعادتي، فانتفضتْ مـن مكانهـا وهـي تسبُّ وتلعن وتشتم من كان له يداً في عزوفي عن الزواج !.

تحايلت والدتي بعد بضعة أيام بأن قولونها قد هـاج ومـاج في بطنهـا ولم تعد تحتمل الألم، وأن عليهـا مراجعـة الطبيـب في منطقـة (العگيـدات)، وصفته لها إحدى أقاربنا بأنه فلتـة زمانـه، وأنـه قـد عـالج المـرضَ الموحـد للعـراقيين وهـو القولـون. انحشـــرنا في الأزقـة وأنـا اسـتجيب لأوامرهـا بالانعطاف يميناً وشمالاً إلى أن طلبتْ مني الوقوف أمام جـامع (المخيـول). جمهرة من الناس تحت سوره الخارجي يقفون بعشـوائية تـذكرني بتجمعـات باب الطوب، سألتها وأنا أحكّ فروة رأسي: أين الطبيب؟. فلمعـت عيناهـا بغضب، وطلبت مني الترجل من السيارة دون أي نقاش، وأشـارت بكـفّ هتلريّ نحو التجمع أسفل السياج، طأطأتُ رأسي وتقدمت مستسلماً وهـي تسير خلفي، كأسير يقتاده أعداؤه.

امرأتان مكتنزتان متشحتان بالسـواد، عـلى رأسـيهما أغطيـة حبريـة اللون، يبدو أنهما متخلفتان عقلياً، يجلس وسطهن رجل ضريـر تحتـه قطعـة مقوى تعود لشركة (نيدو)،يغطي رأسه بغترة بيضاء متوَّجة بعقـال منسـوج من الشعر. تقدمتُ بتردد والمرأتان تبتسمان لي ابتسامة بلهاء! جلسـت أمامـه

كما يفعل الجميع، بيده النحيلة التي تبرز منها الأوردة الخضراء، قبضَ على رأسي بقوةٍ وتمتم بكلمات وآيات كريمات وقال لي:" گول ياهو ياهو". بادئ الأمر لم أفهم ما قال وظننته يطلب الإيميل خاصتي، فسألته: المسنجر؟. فأخرج من خلفه عصا معقوفة ووضعها في رقبتي، وكرر ما قاله بصوت عالٍ، فقلت مثل ما طلب مني، ثم نفخ سامحه الله في وجهي ثلاث نفخات أفزعتني وانسحبتُ إلى الخلف، ثم أعطته والدتي صرّة فيها سكّر أخرجتْها من حقيبتها، فقرأ عليها ثم أعطاها إياها فقالت له: جزاك الله خيراً يا (معماري). وأنا " كالأطرش بالزفة" كما يقول المثل، وعندما حاولتُ السخرية مما حصل زمجرتْ في وجهي وقالت: إن لم تصمت و تبتلع لسانك "راح يشوّر بيك المعماري ويقلبك إلى شمبانزي" !.

عدت إلى المنزل و لم أنبس ببنت شفة طوال الطريق. وبعد أن تناولتُ العشاء أحضرتْ لي قدح شاي وهي على يقين من أني لا أشرب الشاي إلا صباحاً، فطلبت مني شربه لأنها قد وضعت فيه من السكر المقروء عليه، طاردِ الأرواح الشريرة !!. شربته ودخلت غرفتي لأكمل قراءة رواية (سقوط سرداب) لنوزت شمدين، فداهمت غرفتي وهي تنظر إلى الساعة ظانَّة أن مفعول السكر قد بدأ، طرحت الموضوع ثانيةً فرفضتُ بكل برود، وانكببتُ أكمل قراءتي بلا مبالاة. انسحبتْ من الغرفة وهي تلعن (أم بلقيس) وابنتها (الجگمة) جازمة أن لهما يداً فيما حل بابنها، ثم اتصلتْ بجدتي وأنا أسترق السمع خلف الباب لتبلغها بفشل الخطتين ألف وباء، ثم تلقّت الخطة جيم والتي تعذر عليَّ سماعها بعدما خفتَ صوتها.

مرَّت ثمانية أيام ساد الهدوء خلالها ونسيتُ الموضوع برمته. اتصل بي عمي عصرَ اليوم التاسع ليبلغنا بوفاة الحاجة (غزالة) الأخت الشقيقة لجدتي المصونة والتي تسمى (حجية تفاحة)؛ لأنها على مدار سنتين كانت تمسح مخاط أنفها بالورق العازل الشبيه بالمناديل الورقية، الذي يوضع بين التفاح المستورد ظنا منها أنه كلينكس؛ وبذلك التصق بها هذا اللقب. ذهبت أنا ووالدتي فقط؛ لأن والدي كان خارج المحافظة؛ لإكمال المعاملة الخاصة بتقاعده. دخلنا منطقة شارع الفاروق حيث كانت تسكن (رحمها الله)، وصلنا البيت فلم أجد ما يشير إلى وجود مجلس عزاء، فالهدوء كان مخيماً على المنطقة. ظننت أننا أول الواصلين، طرقت والدتي الباب بمدق مثبت على الباب القديم المصاب بتقرحات زنجارية، خرج صبي صغير غمز لأمي ودخل مسرعاً، كانت الستارة المثبتة على القنطرة تمنعني من رؤية ما في الداخل، بعد ثوانٍ خرجت جدتي وأدخلتنا وعلى وجهها ملامح شيطانية، قالت لي: وقع الضحية في المصيدة. وأطلقت ضحكة مجلجلة شبيهة بتلك التي يطلقنها الساحرات في أفلام هوليود. خرجت الحاجة تفاحة من السرداب فكاد أن يغمى عليّ، فهي تشبه (ميساء الساحرة) في مغامرات سندباد إلى حد يفوق الخيال، اقشعر بدني لدى رؤيتها، فأدركت حينها أنها الخطة جيم، وها أنا في أحضان شِراكها وقد تآمر الجميع ضدي !.

طلبت مني أن أجلس جلوس القرفصاء ومد ذراعي فوق ركبي، فأحسستني (مريم نور) بجلدها وعظمها، استجبت لتعليماتها دون أي نقاش وأنا أنظر إلى أنفها الأفطس وأنصت إلى فحيح صوتها قرب أذني، ثم

أحضرت ماعوناً ووضعت فيه قطعة شبٍّ، ووضعته على النار فانصهرت القطعة، وتمتمت عليها بضع كلمات، ثم بدأت بالغليان فأطفأت النار وجلبتها أمامي- ومن الطبيعي كل غليان يرافقه فقاعات- فقالت لأمي بفخر وهي ترفع حاجبها الأيمن وتريها الفقاعات: خمس عشرة عيناً موجهة إلى ابنك. شعرت وأنا استمع إلى هذه الخرافات بأني سأطلق موجة قيء، ثم أعادتها إلى النار إلى أن تفحمت العيون حسب ادعائها، تنفست الصعداء وأنا أهم بالقيام، صرخت أن أبقَ جالساً، ثم أحضرت علبة معجون في جوفها رصاص يغلي، بحلقتُ وأنا مشدوه ثم قلت لها: ماذا ستفعلين؟ لم تجبني وأحضرت طاسة مليئة بالماء ووضعتها فوق رأسي ثم بدأت بسكب الرصاص المغلي داخلها وأنا أسمع صوت الفرقعة وقلبي يرتجف. فجأة هزَّ انفجار شارع الفاروق ففزعتْ ورجفت يدها وسكبتْ بضع قطرات على ظهري، حلَّقتُ بسببها في جهنم لثوان وأنا ألعنها وألعن أباها وأمها، وأركض في البيت كالكلبة المحروقة وأصيح: ملعونة الشيبة حرقتني. فقالت وهي تلملم عدتها بهدوء وثقة: "هي كم قطرة، أنتم جيل رخو".

***

الجيب الحصين

بداية أحب أن أعطي تعريفاً بسيطاً عن الجيمسي الأمريكية الصنع، من عائلة جنرال موترز الشهيرة، التي كانت مع قرينتها الشوفرليت من أوائل العجلات التي ذرعت تخوم خارطة العراق، وشقت طرقه الترابية قبل أن تدخلها صلابة الإسفلت، ومن ثم احترفت نقل المرضى والأموات على صيحات الويوويو. ولأنها ملّت من كونها سيارة إسعاف وجدت شيخوختها في نقل مرضى أوراق النقد المصابين بداء الإفلاس أو ما يسمى ب(سرطان الجيب)، والغريب في هذا الموضوع هو أن الأغنياء يزاحمون المعوزين في ركوبها.

الجيمسي- أصبحت مقهى قصخون[1] تروى فيها الحكايات الأسطورية والطازجة على حد سواء، بعضها أو بالأحرى أكثرها يثير السخرية ويفاجئ الضحك في مكمنه. ففي هذا الاختراع أقصد الجيمسي- وجدتُ أن أغلب الأصدقاء و المعارف يفقدون الذاكرة حين يركبون فيها.

قبل فترة كنت في صحبة أحدهم وقضينا ما يقارب الساعتين نتجاذب فيها أطراف الحديث معاً على بساط أُنس الجيمسي- ناقل الأنس والمفاجآت، والحبس الاضطراري في الشوارع المعقودة بالزحام الذي لا فكاك منه إلا بعد تعب عقارب الساعة حد اللهاث. بعد أيام عدة، رأيته في جهاز مسح الذاكرة، أقصد غريمتنا الجيمسي-، فأصيبَ بتشنج إرادي في

الرقبة؛ كي لا يلتفت ويراني فيضطر إلى دفع الأجرة، ولكني كنت لئيماً أكثر منه ساعة غافلته من حيث لا يدري بصفعة حين وصلت إلى المكان الذي أنزل فيه، التفتّ إليه وأفردت عضلاتي التي مازلت أبنيها خلية تلو خلية، وناديته بأسمه بصوت جهوري لملاكم يريد الانقضاض على خصمه وقلت: واصل عيني فلان. ومن طرف عيني وأنا أهم بالترجل شاهدته يتجلل بعرق خجله وتقوده مبادرتي المعاندة إلى صمت مطبق؛ لأن الموقف الذي وضعته فيه لا يحسد عليه. أنا ما كنت انتظر منه دفع الأجرة ولكن أردت فقط أن يلقي السلام وحسب.

***

(١) القصخون تتكون من كلمتين: (القصة) وتعني الحكاية و (خون) هو راوي القصة والمحترف لهذا الفن

الملك السرسري

في الساعة الثالثة والأربعين دقيقة، داهم سمعي منبه هاتف وتعالت أغنية "أنت معلم واحنا منك نتعلم" بصوت تدريجي حتى ترك آثار أقدامه على طبلة أذني. انتفضتُ من منامي لأجد أخي الأصغر مصطفى يجاهد النوم وخيط اللعاب يسيل من فمه، فالتقطت هاتفه بسرعة وأخرسته، وفي الوقت ذاته صحا ليرى عينيَّ المنفوختين وزفيراً يطفح من أنفي بصوت عالٍ كان رسالة واضحة بأني أتصبب غضباً، طبعَ قبلة على كفه ونفخها نحوي في محاولة منه أن يلطف الجو المكهرب ثم أردف قائلاً: أنا آسف لإزعاجك، لكن العامل قد توقف الآن ويجب أن أعيده إلى العمل. وتحنطت عيناه بمجموعة ألوان ظهرت على شاشة هاتفه يعتليها كلمتان "clash of clans"[1]، لم أنبس بكلمة، لملمت حطام نعاسي، وعدت إلى أحضان فراشي الدافئة.

ألقى صديقي أبو مريم تحيته على عجل وجلس قربي على دكة بابنا. سبابته وإبهامه المطبقان دوماً على بقعة من شعر لحيته أردياها جلدة قاحلة، تلك العادة التي كان سببها حالة نفسية، وشعر ينتشر هنا وهناك على قميصه الأبيض. قلت له: ارحم نفسك قليلًا واترك هذه اللعبة. فأجابني وهو منكبّ على هاتفه: والله فقط سأجمع المليون درهماً وأطور اللعبة وسأكون عندها بألف خير. بعدها جلس الصمت برفقتنا لخمس دقائق قبل أن يقتله صوت أخيه رشوان الذي جاء يهرول تجاهنا وهو يصرخ بأعلى صوته فرحا:

باركوا لي لقد اشتريت العامل الخامس، الحمد لله يا رب. قالها وهو يرفع كف الضراعة إلى السماء !.

يوم أمس اشتقت إلى بعض أصدقائي فقصدتهم للجلوس وهدْر بعض الوقت الثمين معهم، جلسنا وسط حديقتهم المنزلية، سبعة كراسٍ رصفت بشكل دائري يتخللها سلك كهربائي يتفرع إلى عدة خطوط موصولة بقوابس، يتصل كل منها بشاحن يرضع هواتفهم النقالة، يتوسط الجلسة إناء كبير، يرتفع داخله تل قشور عباد الشمس حدّ المنتصف. للوهلة الأولى أحسستني في خلية لمعالجة الأزمات والكوارث، فمنظر تجمّد أعينهم على شاشات هواتفهم وعدم نطقهم بحرف واحد، دليل واضح على ما أعني، لكن ما إن جلست حتى أدركت أني في جلسة "كلاشية" بحتة. حاولت أكثر من مرة أن أفاتحهم حديثاً لكني فشلت، جاهدت لأن أكسر جدار كلماتهم التي اشتملت على "اكسير، جواهر، طلب دعم، حرب، قبيلة، مدفع، هاون، الملك البربري، رامي السهام" وغيرها كثير، لكن اليأس كان أقرب إليَّ منهم. "في أمان الله شباب" قلتها وأنا أغادر، فلم يرد أحد عليّ. كيف لا وهم غارقون في بحر من الإكسير! فأشفقت على نفسي وأجبتها "الله معك".

مدٌّ من الاشتياق وجزر من الحنين إلى عمتي أجتاح أبي، عمتي التي سافرت إلى تركيا مع بدء أحداث الموصل في حزيران ٢٠١٤، فقال لي وهو يشهر سبابته إلى وجهي الوديع: اذهب إلى مكتب خدمات الانترنت واتصل بأختي لأطمئن عليها، فجدتك رأتها يوم أمس في منامها وهي تشرب كوكا

كولا!. وحسب تفسير جدتي حفظها الله ورعاها وأطال في عمرها التسعيني أنه فال سيئ؛ لأن الكوكا كولا لونه أسود، والسواد يعني الغمة والحزن. ثم أتبع قائلاً: هل لديك برنامج "فيبر" في هاتفك ؟. هززت رأسي إيجاباً وأنا أكابد ضحكتي التي أفلتت رغماً عني مصححاً له: قصدك "الفايبر". هز كفَّ يده ولوى شفته وقال بغلظة: لم يبق سواكم يعلمنا الكلام. ارتبكت بعدما أصبح الأمر جدياً، وأردفت بالقول وعيني بين قدمي: لا، العفو منك حجي.

صادف يوم اتصالي "الفيبري" كما يسميه أبي تحديث هذه اللعبة المشؤومة "كلاش اوف كلانس" فوجدت المكتب يغص بالزبائن. حشرت جسدي وسطهم لاتصل، فشد انتباهي جلباب صيفي مقلم بالأسود والأبيض، داخله رجل ستيني تتدلى من كفه مسبحة حمراء، أسنانه لم تقاوم إعصار السنين، صلعته ناصعة السمار، فودا رأسه أبيضان، أصابعه تتنقل على شاشة هاتفه الآيفون برشاقة رياضي يتزلج على الجليد، كان مندمجاً حد الفقدان، هذا ما قالته قسمات وجهه الهائم. فجأة صاح به أحد الشباب الجالسين: "أبو نزار يرحم والديك دعم". فأجابه وهو يحشر إصبعه في أذنه ويرجها: "أُكمّل هذي الهجمة وتدلل، منطاد ماكس أسود لعيونك". فانتصبتْ إبهام الشاب قائلاً: اوكي.

بعد مرور أسبوع..الساعة الخامسة والنصف فجراً..

انسكب صوت أم كلثوم من هاتفي تغني "يا مسهر النوم في عنيه سهرت أفكاري وياك" فوق الهدوء الذي يعم غرفتنا أنا وأخي،اعتدلتُ

كرجلٍ آليٍّ وأمسكت الهاتف لأسكته وأباشر لعب الـ"clash"، فأخرج أخي رأسه من تحت وسادته كحلزون خرج من قوقعه قائلاً بغضب: "التالي اليوم ما أنام"؟. خصوصاً وأن هذه المرة الثالثة التي رنَّ فيها منبه هاتفي تلك الليلة. أجبته بابتسامة تقطر خبثاً: العاملان صبحي ومروان أنهيا عملهما الآن ويجب أن أعيدهما إلى العمل؛ لأن الوقت ليس في صالحي. وطبعت قبلة في الهواء ونفختها تجاهه، فغمغم وهو يعود إلى نومه موجهاً كلامه إليَّ: "وينك أبو صبحي، الله ينتقم من إللي علمك تلعب".

***

كمال أجسام

ما إن وطأتُ عتبة الجيمسي المتآكلة حتى هبطت قدمي اليمين إلى الأرض، وكادت أن تطيح بي لو لم أتحاشَ السقوط بخفة متسلق جبال، لكن الواقع أن يومي المنحوس كتب عليّ بأني سأكون المتسبب الوحيد في جريمة كسر درجة سلم الصعود إلى مدخل الجيمسي؛ ولأنني آخر راكب يمتطي صهوتها وبيده تلويحة الشروع بالانطلاق، فزت بلقب صاحب الفرج أو المنقذ في عشيرة ألبوجيمسي. قال الجميع بصوت واحد: "الله الله، ما صار شي". رد السائق: "فلّشلي الجيمسي وما صار شي". وكأنه قد أحضرها تواً من المنطقة الحرة (المخصصة لبيع السيارات الحديثة). كان الرجل كبير السن وأسنانه الخاوية على أعجازها يغيب أغلبها عن الاصطفاف، وتضاريس وجهه أصبحت نهباً لإزميل الزمن الذي ضاعف خطوط تغضناتها، كذلك مساحة رأسه أصبحت جرداء، وقد رصف أمامه صوراً في مقدمة الجيمسي تُظهره وهو في مقتبل عمره، وكانت إحداها تحمل تاريخاً يشير إلى عام ١٩٦٢ حين تم حصوله على لقب بطل العام في كمال الأجسام وتظهر عضلاته التي كانت متزاحمة! ولسوء حظي كنت أرتدي ملابس ألوانها كاشفة فتحولت إلى ألوان غامقة بسبب الحادثة، جلستُ في نهاية التابوت فوق الإطار "الأسبير" الذي أصبح مقعداً معترفاً به، وفي منتصف الطريق حدث الذي لم أكن أتوقعه، ناداني السائق وقال هامساً: "ايدك على خمسة الاف دينار دصلح سيارتي". قبل أن أرد الجواب تفرّست في صورته البطولية وأكوام العضلات الستينية التي بطُل مفعولها الآن وذابت تماماً

فوق مرجل السنين في ثنايا الجسد، ولم تعد أكثر من جلد رخو رقشه النمش؛ لتترك تلك العضلات التي أصبحت ذكرى لا يؤكدها إلا الصور التي تزاحمت في مقدمة الجيمسي، وأكلت ثلث الزجاج الأمامي، أقول لتترك صدراً ناتئاً كصدر عصفور أو قل إن ذلك الجسد الذي كان بحجم فيل، أصبح الآن كجسد عصفور حقيقي، عندها رددت قائلاً: "أي سيارة تقصد"؟. فقال بنبرة هادئة: "يا ابني دمرتلي السيارة عالأقل نتقاسم الضرر". وكأني قد صدمته بسيارة من نوع سكانيا! فقلت له بلهجة معاندة: أتمزح معي؟. فرد غاضباً وصوته أقرب إلى الصراخ وعيناه تغرقان في حمرة مفاجئة، وكأن الرجل العصفور تحوّل إلى مصاص دماء دراكوليّ ويده تداعب عصاً بجانبه، فقال: "ليش آني أعرفك دتشاقا وياك؟ وإذا ما انطيتني الفلوس راح أسوي شي ما يعجبك". ولأنه رجل كبير في السن، فوّضت أمري إلى الله وأعطيته ال٥٠٠٠ دينار ونزلت. وهذه كانت أغلى أجرة لجيمسي تسجلها حافظة نقودي في ذاكرة التقشف القسري، كانت الجيمسى تبتعد عني، بينما بقي صوته الزاعق يتردد في الفضاء من حولي، لم أكن خائفا أو نادماً على خسارتي، ولكن ما حيّرني في وقتها، هو كيف أن شيخاً بجسد عصفور له مثل ذلك الصوت الراعد !.

***

بريمز[1]

سرحتُ وأنا أطالع صورتي المعكوسة على الماء من فوق الجسر القديم، حاولتُ أن أعيش لحظات تأمل، أن أتحدث مع محمّد على انفراد، أن أفوز بدقائق تعايش سلمي مع نفسي، ولا سيما أني في الفترة الأخيرة أعلنت العصيان الاجتماعي ضد الجميع، حتى ضد نفسي.

أغمضت عينيَّ واستنشقتُ الهواء، لم البث أن أزفره حتى أحسست بألم فضيع دب في قدمي اليسار، وتلاشى معه شعوري بأصابع قدمي، اتبعه صوت انفجاري: "جاي تنام هِينه؟ اطلع عن الطريق". مضى غير مبالٍ أنه دهس قدمي هو وعربته المحملة بالأسماك تاركاً خلفه قدماً معاقاً، وبنطلوناً مبتلاً بمياه ذات رائحة كريهة كانت تخر من العربة.

عبرت الجسر وأنا أسير مثل سلمى بطلة إعلان (لماذا..لماذا) ضد شلل الأطفال الذي كان يعرض سابقاً على تلفزيون العراق. ابتسمت وأنا أضع في جيبي التأمل، التعايش، والخلوة مع نفسي متناسياً وجعي بعدما تعرضت لاستفزاز دخان الشواء الذي يعم منطقة الميدان. أسرعت لأخذ قسطٍ من الطعام؛ كوني خرجت بلا فطور لأن قنينة الغاز الخاصة بنا قد وافاها النفاد صباحاً.

رحت أسامر قدحَ الشاي- بعد أن سبقه "نفر تكة" إلى معدتي- مراقباً المارة، فهذا يحمل مدفأة وذاك يحمل (چولة) وآخر يخفي سيكارته داخل قبضة يده وينفث دخانه داخل كنزته! صوت طاسات تغازل بعضها

لبائع السوس، مكبر صوت ينادي"كارت أبو الخمسة بخمسة تحويل رصيد".

رنَّ هاتفي الصائم عن الرصيد بصوتٍ مبحوح أغنية لأصالة نصري (متى شوفك نظر عيني تنوّر عمري وسنيني أنا مالي سواك) لكون هذه الأغنية تذكرني بالمفقودات الثلاث: الكهرباء، الغاز والراتب. كانت والدتي على الخط، فأجبتها متأتئاً كونها أوصتني عند خروجي أن أسرع لشراء (پريمز) لتعد الغداء، لكني كنت قد نسيت، فبرَّرت لها أن زحام الطريق هو السبب وأني عائد إلى المنزل في غضون نصف ساعة.

تعجلت لشرائه وأنا في طريقي لمحت مجموعة من الناس تجاوز عددهم العشرة متجمهرين قرب سوق الأربعاء بالتحديد أمام معرض المدينة المنورة لبيع الأجهزة الكهربائية، حشرتُ نفسي وسطهم لأشبع فضولي، فوجدت رجلاً كبير السن جالساً على الأرض، يتدلى كرشه المنفوخ بين ساقيه السمينتين، يحيط به منتج (اطبخ وأسبح[٢])، يجلس قربه طفل مصاب بمتلازمة داون (منغولي[٣]) يعمل كدعاية للمنتج، تارة يشم تحت إبطيه بعمق ويقول "تيّب.. تيّب" وتارة يحرك رأسه بسرعة ليتطاير شعره ويقول "نديف..نديف" ثم يدلك بطنه دائرياً ويقول "تبعان...تبعان".

لا أخفي سراً أنه أقنعني بحركاته العفوية وكلماته المعاقة الصادقة، فأخرجت محفظتي وأنا أنظر إليه وأبتسم، اشتريت منتج (اطبخ وأسبح)

وأنا أهم بالرحيل نظر إليَّ المنغولي وهو يغلق أنفه ويخرج لسانه قائلاً: "أتَّري أتنين أنت دايف ليحتك تمك". فترجم أحد الواقفين كلامه وهو يقهقه ضاحكاً: يقصد اشتري اثنتين لأن رائحتك كريهة كرائحة السمك. متابعاً القول: "روح والهوا بظهرك اطبخ واسسسبح". وهو يغمز لي بعينه !.

***

(١) هو اختراع يعمل على النفط يُستعمل لتسخين المياه وللطبخ، كان يستخدمه أجدادنا قبل سبعين عاماً تقريباً.

(٢)هو اختراع شاع في وقت داعش يحتوي على چولة وعلى خزان ماء صغير، الچولة للطبخ ،وخزان الماء للسباحة.

(٢)لم أقصد الانتقاص من المنغوليين لكن هذا ما رأيته ونقلته بأمانة.

ترامادول[1]

فور وقوع عينيه على عبارة (التدخين ممنوع) أخفى سيكارته- التي أشعلها تواً- داخل كفه التي تغطيها لفافة طبية بحركةٍ سريعة، دخلنا أنا وهو إلى مستشفى الموصل التعليمي/ الاستشارية/ شعبة المفاصل؛ لكونه يعاني من إصابة رياضية في كفه. شباك التذاكر تعلوه ورقة معطوبة الأطراف كتب عليها (سعر طاقة ٢٠٠دينار). قطّبت جبيني مستغرباً من الرقم وفجأة اقتنصت عيني رجلاً أربعينياً يقف قرب النافذة يلوك بفمه شيئاً ما ويبصق، أدركت بعدئذٍ أنه تناول الصفر لتوه وهمَّ بتناول حرف الطاء لكونه أجهز على الألف واللام والباء قبل مجيئنا.

بطاقتين من فضلك، قلتها وأنا أناول الموظف أربعة ألاف دينار بعدما أقنعني صديقي أزهر بالدخول معه إلى الطبيب لمعاينتي أنا أيضاً معلقاً بالقول: "اشنو الفين والله امبلاش بالعيادة بعشرة". سألتُ الموظف: هل يوجد ازدحام على غرفة الطبيب؟. فلوَى شفتيه ثم أكمل مضغ العلكة ونفخ فيها بالوناً وفجره في وجهي والتي كانت رائحتها تحلق في أرجاء المكان، كانت برائحة الكرز.

على باب الانتظار تسكعتْ نظراتي بين الواقفين، فحولي عمال شوَت وجوههم الشمس، شيوخ تخطى الزمن على وجوههم فجرفها، وأطفال يتزاحمون على نافذة غرفة الطبيب يرفعون أخماص أقدامهم ليروا ما في الداخل وبزفيرهم يشكلون غيوماً على الزجاج؛ ليرسموا عليه قلباً يخترقه سهم وحرفين باللغة الانكليزية، ثم يتغامزون ويدفع بعضهم بعضا،

ابتسمتُ مع نفسي لتلك الرومانسية المبكرة التي نلمسها صغارا وتستحيل عنفاً عندما نبلغ. التفتُّ يساراً حيث غرفة (الإشاعة) كما يسميها المراجعون. مرضى هنا وهناك يستلمون صورة الأشعة، يرفعونها إلى الأعلى يشخصون حالاتهم قبل دخولهم إلى الطبيب. قال أحدهم وهو يغلق إحدى عينيه ويعاين الأشعة: "ما يحتاج أفوت للدكتور عندي هشاشه بالعظام، حمص وقولات استعدل". ثم رحل!.

صديقي أزهر شخص اجتماعي بامتياز، يحب التعارف وسماع قصص الآخرين. توارى عن ناظريَّ بين تلك الجمهرة أمام الباب، فتَّشتُ عنه فلم أجده، ثم وقع نظري عليه وكان بصحبة امرأة طاعنة في السن، تشير ملامحها وزيُّها الخارجي إلى أنها قروية حيث كانت تجلس القرفصاء على الأرض وتحشر في فمها قصبة عصير داليا فتصدر صوت شفطٍ أثناء مصها للعصير، تدعى أم دحام حسبما أخبرني لاحقاً، وجدته يجلس أمامها فاغراً فاه وهي تروي له بطولاتها المنزلية ودورها القيادي في البيت وكيف يجتاح الخريف وجوه زوجات أبنائها حين يأتي اسمها على سمعهن.

لم يدم انتظارنا عند باب الطبيب أكثر من سبع دقائق حتى ظهر شخص من الغرفة المجاورة لغرفة الطبيب، صاح بصوت جهوري: "وين الشخص الّي ديسوي بتر لكفه"؟. عمَّ الهدوء المكان ولم يجب أحد، عندها انتفضت أم دحام من مكانها تجر أزهر من يده وهي تقول: "خطيه هذا الوليد أيده تأذيه سويله بتر مدري شيسمونه، ذاك ما موجود تكسب أجر أبويا وأخويا".

سحب أزهر يده بلمح البصر وضـمها إلى صـدره وحبَّـات العـرق تتزحلق على جبينه، وأخذ يقول: "الحجية دتشلع السـن وألمـه". همسـت في أذنه: اقطعها يا صديقي اقطعها "والله امبلاش بتر بألفين"!!.

***

(١)عقار يشبه الأفيون يستخدم لعلاج الآم المتوسـطة إلى الشـديدة مثـل آلام الأعصـاب والعضلات وآلام العمود الفقري والتهاب المفاصل

جون سينا[1]

ما إن اجتزنا بحر ايجة بقاربنا الهوائي حتى كنا مصدومين وفرحين وجائعين ووو... لا أعلم، فكثيراً ما تتواطأ اللغة مع النسيان ضدي. طلبتُ من صديقي أن يقرصني فنهش كتفي وقال ضاحكاً: صنعت لك ساعة. ثم التفتُّ وهو يتحدث إلى كاميرا جواله بصوت أقرب إلى الصراخ: نحن الآن على سواحل اليونان، أخيراً وصلنا. وقال مُلوّحاً بيده: "باي باي موصل".

سرنا قليلاً وكثيراً وها نحن في فيينا، أكملنا إجراءات اللجوء واستقر بنا الحال في مخيم يحوي اللاجئين العراقيين والسوريين، كان قيظ الصيف قد حوّل وجوه النمساويين إلى خوخ متعب، شبيه بالذي يدسه الباعة خلسة في سوق المعاش، ولكون بشرتي صدئة فكنت أتجول بكل حرية لا أخاف الشمس أبداً، انطلاقاً من المقولة الموصلية "المنقع ما يخاف من المطر". بدأت استكشف هذه المدينة ببنائها ووجوهها وحتى هوائها، لوّحت بيدي لأوقف سيارة أجرة فمالت عن الطريق الرئيسي ووقفت بهدوء جانباً، فقفزتْ إلى ذاكرتي صورة الطابور في مدينتي، الذي كان يصطف ما أن تفكر أن تعبر شارعاً أو تنتظر صديقاً قرب رصيف فتشعر لوهلة بأنك فتاة عارية تقف وسط شارع من كثرة (الهورنات والترميشات) التي تنهال عليك.

استقليت السيارة فلفحتني موجة بردٍ قارص معطرة برائحة نرجس، كان دشبول السيارة يزفرها نحوي بهدوء وتروٍّ، التفتُّ إلى السائق فوجدته أقرب إلى أن يكون مهندساً أو طبيباً أو أستاذ جامعة، لكن تباً

لذاكرتي الخبيثة التي تفتش عن ذكرياتي السوداء كمتسوّل يبحث عن علب بيبسي أو بلاستك أو خردة في مكب للنفايات، فأخرجت هذه الذكرى وهي تضحك بخبث، أرجعتني إلى يوم صعدت مع أحد سائقي الأجرة والذي كان اسمه أبو نشمي كونه استعرض لي سيرة حياته من المولد حتى لحظة صعودي، كنا في شهر رمضان ودرجة الحرارة تعتزم النجاح! كان يرتدي حذاءً تفوح منه رائحة جوارب أشبه بباقلاء مسلوقة ممزوجة برائحة عرق تفوح من تحت إبطيه ومن منشفة زرقاء مبللة يلف بها رأسه ما اضطرني إلى أن أقطع أنفاسي كغواصٍ، وأترجل من السيارة قبل وصولي إلى المكان الذي أروم، بعدما كدت أن أغيب عن الوعي !.

همس النمساوي الكافر بصوت موسيقيّ قائلاً: إننا وصلنا، مشيراً بيده إلى المكان. وأضاف مبتسماً بأنه يرغب في مساعدتي إن كنت أحتاج إلى مساعدة ما، فشكرته ونزلت.

عند المساء، تجولنا في إحدى الحدائق العامة فلم أجد شباباً يحملون مسجلات تصدح بصوت سارية السواس أو نوري النافولي ولاحتى قاسم السلطان، لم تغص قدميَّ بقشور حب عباد الشمس ولم تتلقَّ الفتيات هنا ما يتلقينه هناك عندما يحل زحام في مكان ما أو في أيام الأعياد، لم ولم ولم. فجأة وقعت عينيَّ على حبيبين يجلسان في أحشاء الظلام يناول أحدهما الآخر قبلة بين ثانية وأخرى وهم يشربون كئوس الحب الكرستالية بصمت صاخب. بينما كنت أتأملهما عادت فجأة ذاكرتي إلى الوراء ووقعت في أحضان ذكرى رمادية.

كنا في سفرة عائلية في مدينة ألعاب الموصل، كان ذلك عندما كنـت في مرحلة السادس الابتدائي، حيث لم أكن أعلم عن الحياة سـوى مـا يجـود به والدي عليّ من معلومات معوّقة، أبرزها كيفيـة مجيئـي إلى الحيـاة، ولـولا كتاب الأحياء لمرحلـة الثالـث المتوسـط، لبقيـت في غياهـب الجهـل لفـترة أطول. فجأة سمعنا صراخاً ورأينا أناسـاً متحلّقـين قـرب إحـدى الحـدائق وبالتحديد قرب جهاز الصحن الطائر. شـتائم، بصـاق، صراخ وانفرجـت الحلقة عن شاب وفتاة هـاربين بعـد أن أخـذ الجميـع نصـيبهم مـن الركـل والضرب مسرعين والشاب يقسم (بالنبايا والقرعان) أنه متزوج منهـا قبـل أربعة أيام، "ولكن بعد خراب مؤخرته".

مـا أن عـدت إلى المخـيم حتـى بـدأ الصـداع يفجـر رأسي واحتـل الاصفرار وجهي يبـدو أني أصـبت بضـربة شـمس، فيـومي كـان حـافلاً بالمشاوير. نقلني رفاقي إلى مشفى بعد أن ازدادت حالتي سوءاً وغبـت عـن الوعي. فتحتُ عينيَّ لأجد نفسي في غرفة أسرّتُهـا مزينـة بـاللون الأبـيض، فضاء أبيض، شاشة تلفزيون تبث فـيلماً رومانسـياً لــجوليا روبـرت، باقـة گاردينيا تعبق بها الغرفة، وممرضـة تقـف قـربي لا ينقصـها سـوى جنـاحين لتكون ملاكاً. فأشرق وجهـي وغمـزتُ لهـا، قالـت لصـديقي بهـدوء بـأني أحتاج إلى إجراء عملية بعد أن كشفوا عن وجـود تضـخم كبـير في مـرارتي بفعل الدهون المتراكمة قديماً. ترجم صديقي ما قالـت فعـدتُ إلى غيبـوبتي مرة أخرى من الخوف.

أُخرجْـتُ مـن غرفـة العمليـات وأنـا أسـب المـالكي وعـلاوي والجعفري والسياسيين أجمعين ومن تبعهم إلى يـوم الـدين، ردّدت بصـوت

سكران أغنياتٍ حماسية ثورية وأخرى رومانسية، وطيف صديقي اللئيم يطوف حولي وبيده كاميرا تسجل بعينها الوحيدة كل شيء. جميع مَن حولي يتكلمون معي وأنا تحت تأثير المخدر شبه فاقد للوعي، وصورهم متموجة كأني غاطس في بركة ماء إلى أن دخلت الغرفة.

سمعت صوتها كأنه صدى، صوت بعيد يتردد في أذني ثم أحسست بوخزة في فخذي الأيمن، تناهى إلى أذني صوتها وهي تسأل وكأنها في جوف وادٍ: ألم يفق من المخدر؟. جاء صوت أبعد قائلاً: كلا. فهوَت يدها على خدي بصفعة ثم اتبعَتها بأخرى ارتج دماغي وتقطعت أوصالي منها ثم أمسكتني من ياقتي ورجّتني أربع مرات تقيأت على إثرها. فتحت عينيّ لأكشف عن مخلوقة بحجم فيل، سمراء حد السواد عليها روب أبيض واقفة أمامي، فقالت وهي تضحك لتكشف عن سنٍّ فضي يلمع في أقصى فكها الأعلى: الحمد لله على سلامتك، لكن يبدو أنك متأثر جداً بالنمسا!. دُهشت، تمزقتُ، انفجرت، تحولت إلى فُتات من اليأس، ظننته كابوساً فقرأت المعوذات فلم تحترق، صرخت في وجهها: من أنت وأين أنا؟. فأجابتني بوجه إبليسيّ لعين: أنا ملاك الرحمة وأنت في مستشفى صدام يا عيني، أقصد مستشفى السلام.

***

(١) ممثل أمريكي من أصل إيطالي – إنجليزي، وعازف هيبهوب ومصارع محترف

نص كباب

في منطقة الغابات، ليلة رأس السنة، ساعة يدي تشير إلى السابعة وخمس وثلاثين دقيقة مساءاً، كنت برفقة أحد أصدقائي الذي كان يخطط قبلها بأيام كيف يجد طريقة للدخول إلى أربيل مجتازاً المرشح ألامني لكي يتسنى له الاحتفال هناك، لكنه لم يفلح بذلك واتصل بي هاتفياً لنلتقي في الملاذ السياحي الوحيد في المدينة.

في الموصل اقتصرت الاحتفالات على رسالة جوال خجولة، وعلى التسمر أمام شاشات التلفاز ومراقبة احتفالات الدول الأخرى بأعين شاخصة وأفواهٍ مفتوحة ولسان يقول جملة موحدة: "شوف الناس وين وصلت وشوف حالنا"!. ليس هذا فقط، بل يجب عليك مشاهدتها قبل الساعة الثانية عشرة؛ لأنه في هذه الساعة تكون على موعد مع احتفال من نوع آخر، وبدلاً من أن تكون الأنشودة (we wish u a merry chrisms) تكون (نعلا والديك أبو المولدة)، وفي المقابل ما أن يطفئها يقول: ووالديكم. وهكذا ندخل سنة جديدة في ظلام.

كان الطقس بارداً نوعا ما في الغابات، رياح تداعب شعر الأشجار، نسمات تكنس الأوراق المتساقطة على الأرصفة لتعطي جواً رومانسياً وهذا كله كفيل بأن يجعل الإنسان ينقب في ذاكرته عن بعض اللحظات الجميلة التي مرت في حياته. هاتف من صديقي أعادني إلى الواقع قائلاً: انظر إلى حال المدينة، شوارع يتيمة، هدوء مخيف، سيارات تفصل الواحدة عن الأخرى دقائق، فلا يوجد إلا نحن وأشجار ثملة بنسمات دجلة ننتظر سنة

جديدة حبلى بجنين وكلنا أمل أن لا يكون مشوهاً كإخوانه السابقين رحمهم الله.

عصافير بطني بدأت بنتف ريشها فقررنا الدخول إلى المطعم، وما أن لمحَنا صاحبه حتى صوّب تجاهنا مروحة المنقل ليوقعنا في فخ رائحة شواء الكباب، فعمّ الدخان المكان واستطاع استحضارنا بنجاح. قطعة كارتون كانت خلفه مخطوط عليها (لحم غنم ١٠٠٪) عندها قلت له وأنا أغمز لصديقي: هل لديك لحم روست؟ لأن الطبيب منعني من تناول لحم الغنم. عندها التفت إلى اللافتة ورماها وهو يضحك قائلاً: "من كل عقلك صدگت هذا لحم غنم"؟. عندها أُصبت بالذهول لأني لم أكن أعلم أن الأخ سيبيع القضية بأربعة آلاف دينار ثمن "النص نفر".

كراسٍ تستجدي من يشغلها، طاولات تصفر، تلفاز شابت شاشته واسود قلبه، محطة لا ترتقي إلى مستوى البث الأرضي، كان هذا المشهد داخل المطعم. جلسنا على إحدى الطاولات وبدأ بترتيب السُّفرة لنا بعناية، كوننا الوحيدين داخل المطعم. ما إن بدأنا بالطعام حتى دخل رجل في العقد الرابع من العمر، يرتجف برداً وفقراً، عليه ثياب رثة، نصف رأسه مغطىً بشماغ، عيناه غائرتان داخل غيمة تمطر تعباً وأسى، شحوب احتل وجهه بالكامل، شيب ذقنه نما بطريقة فوضوية تغذّى على سنين الحرمان يروي حكاية فقر مدقع عاشها في حياته، شاهد آخر على حالهِ المزري هو سلة يحملها بيده اليمنى مملوءة حد العنق بحب عباد الشمس. همس في أذن صاحب المطعم فذهب الثاني وأحضر له رغيف خبز، أخذه وخرج ليجاور

المنقل الذي بدأت رائحة الكباب منه تعم المكان، فأخذ يستنشق الدخان ويقضم رغيف الخبز. لا أدري أي شعور انتابني وأنا انظر إليه بقلب يتصدع وعيون غرقت دمعاً، أسرعت إليه بالطعام لكنه رفض ومضى بعيداً عن المطعم، فقال لي صاحب المطعم: لا تحاول معه فلديه عفة نفس لو وضع عُشرُها في أيّ مسئول عراقي لصلح حال العراق، دعه فأسرته بانتظاره وكلها أمل أن تنام وهي شبعانة.

***

18+

"بالقرعان تنطيني" تناهى صوتها إلى أذني من بعيد، وخفق نعليها المتعالي يعلن عن اقترابها نحونا وهي تشق زحام منطقة المجموعة الثقافية شقاً، تذمر جميع أصحابي المتحلّقين حول طاولة الطعام ينهشون الفلافل الباردة، ما الذي أتى بها الآن؟ صاحوا جميعاً وتفرقوا كل واحد إلى جهة خوفاً من سيل شتائم قد تطلقها وهبية في أي لحظة إذا ما رفضوا إعطاءها صدقة.

بقيتُ وحيداً لم أتزحزح من مكاني واستسلمت لها، اقتربتْ مني، تأملتها بنظرات مشمئز نافرٍ، كانت داخل ثوب مزهر تيبست أزهاره، وسجنت ألوانه خلف قذارتها، فهي لم تتذوق طعم مسحوق الغسيل يوماً، وعباءة فوق رأسها اللون الأسود بريء منها، وخصلات شعر أشيب تهربُ من تحتها تروي حكاية شعاثة بتفاصيلها، وأصابعها الغليظة تعض على سيجارة (Aspen) أعمى دخانها عينيّ.

قلت لها وأنا متقطع الأنفاس: "على الله عيني". فانطلقت وهي تنظر نحوي بودّ وتغني: " كلك على بعضك حلو والأحلى الخجل البعيونك". احمرّ وجهي خجلاً وأنا أسمع تعليقات المارة المنحرفة وكاميرا أصدقائي التي تصور المشهد الرومانسي، قلت لها بصوت يكاد يُسمع: اذهبي فلم أتسلم راتبي منذ أحداث حزيران ٢٠١٤ وحافظة نقودي تجر مواويل الإفلاس. أحسستُ بحزن اعتلى وجهها، لم أرها يوماً هكذا، ثم سألت وهي تشير بسبابتها إلى السماء: من المسؤول عنا؟ أجبتها: الله.

فقالت: من يرزقنا؟ فأجبتها: الله. ترقرق الدمع في عينيها فمسحته بكمّ يديها قائلة: "الله ما ينسى أحد".

كان في صوت وهبية المتسولة شيء ما شدني، برود وهدوء وثقة عالية لم أتوقع أن أجدها يوماً في شخصها، أرسل ذلك الشعور موجة قشعريرة اجتاحت جسدي، سألتها بصوت حزين: هل أنتِ جائعة؟ فأجابت: كلا. ثم اندفعت داخل مطعم أبو يحيى وأنا أراقبها بدهشة فأخرجت من كم يدها ألف دينار وأعطتها له وهي تشير بيدها نحوي، فهزّ الرجل رأسه ثم عادت إليّ وقالت بحزم: حسابك واصل. دُهشت أنا وأصدقائي بما حصل تواً، فوهبية شخصية معروفة لدى أهل الموصل تأخذ ولا تعطي، وربما أكون أنا أول شخص يفوز بألف دينار منها.

تأملتُ قليلا ولقمة تختبئ تحت خدي المنفوخ كم من غني في مدينتي يسمع أنين جاره الجائع ويصم آذانه ويعمي عيونه عنه! ليس هذا فحسب بل يرسل له دخان منقله المحمّل بروائح الكباب والتكة والدجاج، وكم من فقير يتقاسم لقمته مع غيره ويقول: خير الله كثير.

نظرت نحوي وهبية ببشاشة وسحبتني من يدي نحو الچايجي الذي أمام المطعم، سألتني: ماذا تحب أن تشرب؟ فأجبتها مبتسماً: كابتشينو. فصعقت وركبها عفريت وانتصب إصبعها الأوسط واتبعته بكلمة: هذا أحسن. وأمطرتني بوابلٍ من الكلمات المحظورة ورحلت وهي تصيح: "والله المكادي ما ينعطون وجه".

بيض غنم

بعد أحداث الموصل في العاشر من حزيران عام ٢٠١٤ بفترة ليست بطويلة، بدأت الطائرات المسيّرة تخيط أوصال الغيوم المتفرقة بدخانها الأبيض، تطوف أرجاء المدينة سداً ومخموراً تلعفر وقيارة تبحلق بكاميراتها على المدينة ، ثم بعد أيام قلائل بدأت تنفذ قصفاً على مواقع منتخبة ،كانت في بادئ أمرها تخطئ وبشكل كبير وتلقي صواريخ غير معنونه فتسقط هنا وهناك، وسرعان ما أطلق اهل المدينة على هذه الطائرة اسم (حسوني) نسبة إلى متسول أحول معروف لدى البعض ،بينما يسميها نفر آخر (افروديت) نسبة إلى الشخصية الكارتونية في (مازنجر) والتي تملك ثديين صاروخيين تطلقهما وتجلس بعدهما حداداً بلا فحم ،تتلقى الضربات واللكمات. أول مرة ألقت بصاروخيها دب الرعب على إثرهما في القلوب، وتحولت نظرة الاستهزاء بـ (حسوني) إلى نظرة خوف ووجل، قال لي أحدهم مرة وهو يختبئ تحت جدار أحد المنازل بعد أن قصفت صاروخها الأول بقي واحداً، إنها تحمل توأماً ستضعهما وترتاح وتريحنا.

بعد مرور شهر على استيطان الطائرات المسيرة في سماء المدينة..

التحقت ذات يومٍ بركب الجائعين الجالسين على رصيف يعج بالكراسي الموزعة بعشوائية في منطقة(باب الجديد) وسط الموصل؛ لأتناول المشويات التي تشتهر بها هذه المنطقة، وانين الطائرات المسيرة يعزف لحن سيارة سحب المياه الثقيلة، كانت سحب الدخان تحتضن الجميع بحنان من كل جانب؛ لتهبهم نشوة تثور على إثرها تماسيح بطونهم المختبئة خلف

كروش مقببة مأهولة بالشحوم ، وشرر يتطاير في كل الاتجاهات وشحمة يلقيها الشواي اللئيم على جذوة النار بين فينة وأخرى لتعج رائحة الشواء وتسحب الناس خارج مدى المطعم بأغلال دخانها نحوها كالسائرين أثناء النوم تماماً، كمبخرة يلقى على فحمها البخور ليثور ويملأ المدى طيبا.

وضعت أول لقمة في فمي بعدما طلبت نفر معلاق، فجلس أمامي رجل اغتصبه الزمن وأرداه، محدودب الظهر، مجعد الوجه والهيئة، مقمط بروب مربعات يذكرني بالمدرسين والموظفين المتقاعدين الذين ينحصر دورهم في الحياة في الاعتراض على كل شيء، ووصف جيلنا المسكين بالمائع ، رفع يده وقال للكرسون (بيض غنم)، فعلا صوت من داخلي مستغرباً كيف يبيض الغنم؟! فأجبته يقصد خصية غنم، فنحن ننهشها ونتمطق بأكلها ونلبس المعنى حروف غير حروفه استحياءً من أن يقال أننا آكلوا خصية.

قصفت الطائرة المسيرة صاروخها الأول وأنا أمسح ما هطل من الشحم في ماعوني بقطعة رغيف، فاصفر وجهي وأحسست بفراغ في صدري، وبدأ مغص يجتاح أمعائي، التفت الى الناس فلم أر اي مظهر للخوف على وجوه الجالسين، فذاك يحشر الطماطم المشوية، والآخر يلف الكباب بمن فيهم آكل بيوض الغنم حتى انتابني شعور إني متوهم فيما سمعت إلا بعد أن انفرج فمه عن ابتسامة استهزاء، ثم رفع رأسه بعد أن قصفت الصاروخ الثاني ثم وجه حديثه إلي قائلاً "خلص حسوني التحاميل ارتاح "!!.

انتهيت من شرب (استكان) الشاي ،حشرت خشبة تنظيف الأسنان بفمي ورحت انظر إلى هؤلاء الناس الذين تـأقلموا مـع الحـرب في غضـون أيام، وخضت في مستنقع ذكريات الحرب العراقيـة الكويتيـة حيـث كنـا في رفاهية لم نشعر بها إلا بعد أن فقدناها فعواء صفارة الإنـذار أثنـاء الحـروب نعمة لا يفقهها البعض، ، فما أجملها من أيام حينما كانـت تعلـن أن القصـف سيبدأ، فذاك يختبئ في جوف ملجأ، وتلك تحـت درج وآخـر في حمـام. عنـد القصف تتدرج آثار الخوف مـن شـخص لآخـر فـذلك يقلـع جلـد شـفته بأسنانه بشكل هستيري وذاك يفرط بالضحك، وآخـر يتظـاهر باللامبـالاة، لكن الغالبية العظمى يداهمها المغص المعوي، ثم ما إن يبـدأ القصـف حتـى تبدأ الغازات بالتسرب من مؤخراتهم، والتي تنذر بموجـة إسـهال لا يبقـي ولا يذر عندها يستقبل المرحاض الوافدين الذين يدعون عـادة أن قولـونهم تهـيج بفعـل أكلـة مسـبقة، وعنـد خـروجهم يتهـافتون عـلى أقـراص (الانترستوب) لتوقف السيل.

تذكرت (الفسفوسة) تلك العلبة المعدنية التي تعود إما للحليـب أو المعجون،يثقب غطائها ويحشر فيه فتيلة من القماش، تتدلى لقاع العلبة وتمـلأ بالوقود وتشعل، تستخدم خارج الغرف للإنارة ،وعلبـة حليـب (ديـالاك) متوسطة الحجم يفك بها الأطفـال زنقـتهم الصـغرى لا سـيما في البيوتـات الشرقية، التي تقع مرافقاتها الصحية على الأسطح فمن المستحيل عنـدها أن يلبى طلب المثانة أثناء الغارة التي ربما تستمر لساعات، والشـريط اللاصـق

للنوافذ، وأخيراً الصاج وهو صفيح معدني يشبه الصحن اللاقط، تحرق تحته الأخشاب، ويخبز علية الرغيف، ذلك هو طقم الحروب.

بعد مرور عام ونيف نيسان ٢٠١٥

حاوي الكنيسة، الغابات، تل قوينجق..عائلات منثورة على التلال التي ارتدت قلنسوة الربيع الخضراء، أبخرة متصاعدة من قدور (الدولمة) (أبو جوني) يراقب من الأعلى وأقصد به طائرات الـ F 16، التي كان لها حظ من الألقاب، وإصبع صغير لطفل يشير على دخان أسود يتصاعد من موقع قصف لتوه، وينهش بأخرى سندويشة فلافل، ووجوه ناصعة الحزن لم تعد تبالي، وجوه تلبدت بالتعاسة، وهطل اليأس بغزارة وجرد الحياة، فأصبحت سوداء قاحلة، تلك حياة أهل الموصل بعد أحداثها الأخيرة، لم يعد هناك خوف، لم يعد هناك مغص، ولم يعد هناك إنسان بل بقي الحطام، وهل الحطام يخاف !!!

نفحات إيمانية

طالع طالع... صاح السائق بأعلى صوته، فركبت وكانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية ظهراً، انتظرنا خمس دقائق إلى حين اكتمال العدد غير المحدد برقم يقف عنده استيعاب فضاء الجيمسي، والعائد أولاً وأخيراً إلى قناعة السائق الذي دائماً يريدها علبة سردين. سار الجيمسي بنا وهو ينهب أصوات باعة خضار منطقة باب الطوب، ممزوجة بأصوات السائقين المنادين بأسماء مناطق الساحل الأيسر من الموصل، ونتيجة لركوبي اليومي صرت أعرف الركاب واحداً واحداً، وقد لفت انتباهي أحد الركاب الذي كان ملتزماً دينياً، فما أن يأخذ صاحبنا الورع مكانه على مقعد الجيمسي حتى يبدأ بقراءة سور من القرآن وبصوت جهوري يقطعه على فترات ليفسح المجال لنفحات وعظية لا تجد إلا آذانا عطلها النوم وفرّ منها، قراءة في غير مكانها وسط احتجاج غير معلن ممن اكتسبوا المناعة ضد النوم، فسلكوا طريقاً فرعياً لتجاوز الموقف بأن توجهوا إلى السائق بالسؤال عن جهاز المذياع وعن أشرطة كاسيت حديثة يقتلون بها الوقت الكسيح. نزل الواعظ وكان الجميسي يفرغ من راكبيه ومكبرات الجوامع تشرع برفع أذان العصر، وفور انتهاء المؤذن فإذا بأحد الركاب الذي كان جالساً في نهاية الجيمسي. بدأ يصلي وهو جالس مرتدياً حذاءه وواضعاً حاجياته بين قدميه! والطريف في الموضوع أن اتجاه القبلة يتغير عند دخولنا كل منعطف، والحجّي لا يزال مستمراً في صلاته تاركاً جسده الخاشع يتأرجح يمنةً ويسرة. وعند انتهائه من الصلاة راح في موجة أخرى من الاستغفار والتسبيح، فقلت له مازحاً

بعدما تأكدت من تأثره السريع بمواعظ صاحبه التي كانت حول وجوب أداء الصلاة قياماً وقعوداً وحتى في الجيمسي: "تقبل الله حجّي ماتنطيني مكانك دصلي". فرد غاضباً أعقبها بسباب لهذا الجيل الذي يتبع هواه ولا يكترث لمواعظ الصالحين وقال: "الجيمسي فارغ وأنت تريد مكاني روح ابني روح".

***

هوت بيرد[1]

قبّل رزمة النقود ورفعها إلى جبينه ثم دسها في جيبه، وناولني جهاز الستلايت بعد أن أعاد برمجته وترتيب قنواته التي احتلت رأس قائمتها قنوات الرياضة ومن ثم الأفلام فالأخبار تليها المنوعة، وفي الباحة الخلفية القنوات التي عادةً ما يتابعها كبار السن عندما يغفل عنهم أبناؤهم، ابتداءاً من قناة دلوعة وانتهاءاً بقناة دربكة، وعند أي مداهمة يفرج عن ابتسامة بريئة ويغض طرفه عن الشاشة بورع قائلاً: أتيتَ في الوقت المناسب، فأنا أبحث عن قنوات الأخبار ولا أجدها. كانت حرارة تموز تتراقص فوق قير الشارع على إيقاع أقدام المارة المسرعة، والتي ترنو إلى الفوز بسيارة أجرة (سايبا) ذات التبريد (البوز) كما يصفها الأغلب من الناس. عدت إلى المنزل واستلقيت أمام المبردة، وغطّطت في نوم دهليزي، ثم أفقت على صوت القارئ محمود خليل الحصري يقرأ بصوته الأجش سورة الحاقة (خذوهُ فغلوهُ، ثم الجحيم صلوه)، انتفضت من مكاني مصفرّ الوجه، نظرت بعينين بالونيتين فوجدت والدي يمسك جهاز التحكم ويعيد ترتيب القنوات، وقد وصل التسلسل السابع عشرة قناة المجد للقران الكريم. نظر إليّ بعتب ثم قال: ابني قنوات "القرعان" يجب أن تكون في البداية. اكفهر وجهي، وقلت لكن لماذا: ت... فوضع سبابته على شفتيه وقال: "ششش ولا نفس، حرام".

جدي الذي دهس الزمان من عمره تسعة وسبعين عاماً وأخذ معه ثمانين بالمائة من سمعه، فلكَ أن تتخيله مع صوت التلفاز في غرفة كبيرة

الحجم شحيحة الأثاث كيف يتسيد صدى الأصوات الموقف فيها!. نادى المنادي للصلاة فوضع جهاز التحكم قربه ومدّ رجليه على تخته ودخل صلاته مكبراً، أنهى الركعتين الأولى والثانية فقالت المذيعة وفي خبر عاجل: ورد للتوّ. فالتفت نصف التفاتة والتصقت عيناه بالشاشة فلم يفهم الخبر، اضطر أن يتناول جهاز التحكم ويرفع الصوت ثم يكمل: الله أكبر.. الحمد لله رب العالمين.

أمّ طه امرأة طاعنة بالسن، تقضي جُل وقتها في دكان ابنها الذي بناه في حديقة منزلهم، تستمع لأحاديث الزبائن وتناقشهم في السياسة وكيف ضرب منتظر الزيدي بوش بالحذاء، وأنها لو كانت مكانه "لشلّعته وبلّعته"، و"قوندليزا أم سنون" حسبما تسميها كيف أسهمت في خراب البلد، و"أوماما الأسوداني المدعفس" الذي استبشرت به خيراً عندما ظنت أنه مسلم، وبعدها صدمت به. تتحدث عن أيام الخير ويطيب للجميع الإنصات لها،وتراها غالباً متسمّرة أمام تلفازها الهيتاشي الذي يتوسط الرف تتابع الأخبار والبرامج، والذي يتلقى منها اللكمات كلما اختفت صورته. قلت لطه: أعطني كيلوغراماً من السكّر وجلافة صحون و... فصرخت في وجهي: اخفض صوتك "طلع ذ بوي". واتبعت: "قبّان عينو لكاظم ولصابر"، ما مثل عاصي "لوچة " وشيرين "شلولو". استاءت عندما ظهر الإعلان وهمّت بالنهوض قائلة: سأذهب للصلاة وأدعو لنداء شرارة لأنها حبّابة ومحجبة ومحتشمة. فانقطع الكهرباء فاستشاطت غضباً وقالت:

"مكتوب علينا التعب، لازم ننتظر الإعادة، أنعل أبو الديمضراطية الّي جابها بوش للعراق".

عند المساء تتدافع القنوات الفضائية لتقديم وجبة فاخرة من أشهى الأخبار والتقارير التي طُبخت على نار سياسية غير هادئة، والمنافسات بينهم تكون عادةً بجمال المذيعة وفتنتها ومساحة ما تجود به للمشاهد من ساقيها أو كتفيها أو مفرق صدرها، فتلك تقدّم النشرة وكأنها تمص مصاصة، وأخرى تطوي ساقيها جانباً كما في إعلانات إزالة الشعر، وأخرى تمط شفتيها وتمضغ الكلمة مضغا، وكأنك تشاهد أفلام بورنو في بدايتها. أما المشاهد المسكين فإنه يدمن متابعة الأخبار بشغف وكأنه مسلسل يجب أن يتابعه كل يوم، وهو على علم مسبق بأن أغلبها كذب، وإن لم تكن كذلك فإنها تقوم بتلميع جهة سياسية معينة، وبذلك تظفر المذيعة برضا المشاهد الذي يعدها من أفضل المذيعات، وهذا وفق مقياس غريزته ليس إلا.

قبل ثلاثة أيام كان البيت يعج بالزوار مجتمعين حول المدفأة النفطية التي اختفت عن ناظريّ بسبب كثرة الأيادي الباحثة عن دفء، لا سيما وأن الجو كان بارداً ممطراً. قالت عمتي بصوت هو أقرب إلى صوت مديرة مدرسة: اسكتوا، بدأت الأخبار. وهي تضع نظارتها على أنفها المنقاري، وكانت على إحدى القنوات المحلية التي ابتدأت الأخبار بزيارة لمسئول محلي وسط أبناء عشيرته وهو يتوسط الشاشة منفوخاً، وبعد أن أتم المسؤول حديثه – طبعاً بالعربية المشلولة معذباً سيبويه في قبره– ضغط على يد مرافقه ليبدأ الآخر بالتصفيق، فاشتعل التصفيق وهو يهز رأسه ويربت على أكتاف

الجمهور. وبعدها انتقلنا إلى خبر آخر والذي كان عن فتوحات لدائرة المجاري في الأحياء السكنية، ورفع نفايات في بلدية الموصل.

عند الساعة الثانية عشرة نام الجميع، تسللتُ إلى غرفتي، أخرجت قرصاً ليزرياً اشتريته من سوق هرج ودسسته في فم الـ DVD. استغفر الله العظيم لعنك الله يا فاسد زمجر والدي من الخلف وغادر صافعاً الباب وراءه بقوة، أُسقِط في يدي وأحسست بفراغ في صدري، وحرارة مفاجئة اجتاحت جسدي. لم أكن- معاذ الله- لأتفرج على هكذا أفلام قديمة، لكن البائع غشاش وسرسري، فقد طلبت منه شيئاً جديداً وأعطاني آخر معاداً !.

***

(١) قمر صناعي أوربي، وهل يخفى القمر !!!

مركبة فضائية

في طريقي إلى مرآب منطقتي، لمحت مكعباً ناصع البياض وسط زحمة السيارات يكاد يضيء من انعكاس أشعة الشمس على جوانبه المكتوب عليها (مصلحة نقل الركاب) وفي أسفلها (خط باب الطوب- التحرير)، تأملت الكلمات مليّاً كي أتأكد من أن هذه المركبة شبه الفضائية هي فعلاً لنقل الركاب!. كنت في تلك اللحظة على يقين تام من أني بكامل قواي العقلية، وأنه لا علاقة لدرجات حرارة يومي القائظ، وشمسه المتعامدة فوق رأسي على مداركي، لكنني أردت التأكد أكثر، فألتفت حولي لعلّي أجد تفسيراً لذلك الحشد من الناس الذي حسبته اجتمعَ حول كاميرات تصور زيارة مسئول ما إلى تلك المنطقة، والتي قلّما تنعم بزيارة مسئول. وأخيراً أقنعت نفسي أن هذا الشيء الذي يقف بجانبي أو أقف أنا بجانبه بألوانه الباهرة وخطوطه المزخرفة بعناية على جوانبه هو من باب المباهاة لا أكثر وسط أكداس سيارات الجيمسي الشائخة.

فجأة سمعت هاتفاً من خلفي يقول: عفواً، هل أضعت شيئاً؟. كان رجلاً يرتدي بدلة رسمية وربطة عنق وقبعة لقبطان سفينة، علمت أنه سائق الحافلة! أجبته وكأني لم أسمع سؤاله: هل هذه السيارة فعلاً لنقل الركاب؟. أجاب باسماً: نعم. سألته بصوت أقرب إلى الهمس: كم أجرة النفر؟. أجاب دون أن ينسى ابتسامته: ٥٠٠ دينار !. في البدء اعتقدت أنها مزحة أو أني وقعت في مقلب كاميرا خفية، لكني في الوقت ذاته كنت أرى أشخاصاً لا تظهر عليهم ملامح الثراء يحجزون مقاعد فأسرعت لأحجز مقعداً. السيارة

من الداخل كأنها غرفة في فندق خمس نجوم بمقاعد جلدية وأرضية مفروشة بأناقة. بعد اكتمال نصاب الركاب انطلقت بنا الـ (NEW GMC) إلى حيث لا أدري، وشعرت بنسمات باردة من هواء معطر تملأ المكان، وكانت تساؤلاتي تتناسل في عقلي عن مصدر هذه النسمات التي لها تأثير الأدوية المنوّمة. وبعد تفحص المكان اكتشفت أن هذه الحافلة الخمس نجوم مكيفة وأن هذا التحول التدريجي في درجة الحرارة مصدره جهاز التبريد. وبعد أن اجتاز بنا السائق أكثر من نصف الطريق أيقنت مع شيء من التردد بأن ما يحدث لي حقيقة، فالتفت إلى السائق لأعطيه أجرة هذه الرحلة التي تمنيت مع شيء من اليأس أن تأخذ أطول وقت ممكن، قال لي دون أن يلتفت: أرجو أن تؤجل الأجرة إلى حين وصولنا إلى مكان نزولك. تراجعت يدي مع شيء من الخجل، وحالَ وصولي إلى مكان نزولي قلت بنبرة روتينية: نازل. فاستدارت السيارة بطريقة نظامية محترفة إلى يمين الشارع، أعطيت ذلك الرجل الذي تفرّد بتطبيق القوانين والأنظمة المرورية أجرته، وبدوره ردّ بلطف: شكراً. ترجلت من غرفة الخمس نجوم المتنقلة التي أخذت تبتعد شيئاً فشيئاً وأنا أرقبها بالدهشة نفسها. فجأة أحسست بيد ثقيلة تهزّني: "أخويا وصلنا نهاية خط حي التحرير". كان صوت سائق الجيمسي اللعين، الذي عقّب متهكماً: نعيماً أنت سبحان بعرقك، ادفع لنا أجرة حمام أيضاً !.

هيلاري.. في حمام علي

لم تكن تعلم أنه خبيثٌ إلى تلك الدرجة، فبعد أن أنهيا برنامجهما الانتخابي في ولاية مشغن الأميركية تناولت وجبة عشائها مع خصمها ترامب، وبعدها بقليل أحست أن وجهها بدأ بالتورم وغارت عيناها، ونبت على سطح وجهها عشرات الحبوب المليئة بالقيح، صُعقت عندما نظرت إلى وجهها في المرآة، فجاءها صوت ترامب من الخلف وهو يمسك بطنه ويقهقه ضاحكاً قائلاً بحقد: رئيسة أميركا المستقبلية مصابة بالجرب. عندها أيقنت أنه دس لها شيئاً في الطعام، فإجابته وهي تبكي: تبا لك يا صاحب شعر المقشة تباً لك ترامب. وهرعت خارجاً تخفي وجهها بين كفيها.

لم تفلح المستشفيات الأميركية في علاجها، وبدأت علامات اليأس تتسلق محياها، خرجت من إحدى المستشفيات هائمة على وجهها في شوارع أميركا ،فجأة التقت مصادفةً بصديق قديم برفقته شخص، حياها صديقها بدهشة بعد أن لاقى صعوبة في التعرف عليها بعدما ازدحمت الحبوب على وجهها، شكَت له مشكلتها التي عجز الطب عن علاجها، همس صاحبه في أذنه فابتسم الآخر وقال لها: وجدت حلاً لمشكلتك يا ابنة كلينتون.

حمام العليل ٣٠ كلم جنوب شرق مدينة الموصل..

يوم مشمس يسوده الهدوء والروتين، رعاة برفقة أغنامهم متناثرون هنا وهناك، نساء يتسامرن على عتبات الدور، أطفال يلعبون مباراة بعلبة معجون صدئة، وشيوخ يستذكرون أيامهم الخوالي وأعينهم تختلس النظر

إلى هذه وتلك، وفجأة علا صوت محرك من بعيد فظن الجميع أنه صوت ديزل المنطقة، فلم يعيروه أهمية حتى هدأ، عندها جاء أحد الرعاة راكضاً يلهث ويصيح: "الأمريكان الأمريكان نزلوا يم مزرعة سيد اسماعيل". عض الرجال جلابيبهم بأسنانهم وهرعوا إلى المكان، لحق بهم النساء والأطفال وتحلقوا حول المروحية محدقين بدهشة، أفواه مفتوحة وعيون متسعة على آخرها تنظر إلى باب الطائرة الذي فُتح وترجلت امرأة ومعها أربعة جنود مدججين بالأسلحة ومعهم مترجم، عندها انطلقت صيحات الأطفال: "هيييييي يجا المستر، أعطيني دولار أعطيني دولار. تجهمت وجوه الحاضرين و بدؤوا يتساءلون ما الذي حصل لوجه هيلاري؟ فأطلقت النساء العنان لمخيلاتهن، واحدة تقول: "يجوز طقت عليها الچولة"، وهي تضحك بخبث، وأخرى تقول باشمئزاز: "ذولة الأمريكان ما يسبحون وهذا پياس"، وأخرى قالت وهي تطعن في جمال كلينتون بعدما أعجب بها الحضور ووصفوها بالخيزران ووصفها آخرون بالجبن: إن جمالها صناعي وهي تتناول "الحبابي" كي تبدو جميلة.

أقنع المترجم الأهالي بالمغادرة مستعيناً بأحد وجهاء المنطقة الذي فهم الغرض من الزيارة، فهيلاري قصدت "حمام علي" للعلاج.

الحاجة مظلومة امرأة مسنة قضت الكثير من حياتها في حمام العليل تدلك النساء وتحمّمهن وتتقاضى لقاء ذلك مبلغاً من المال، قالت وهي تمضغ علكاً أسود اللون: إن هيلاري يجب أن تقيم أربعين يوماً هنا كي تشفى، تُغمس في المعين كل يوم وتضع على وجهها وحلاً أسود تفوح منه

رائحة الكبريت، الذي يباع في قناني الماء الفارغة بألف دينـار للنـاس ويبـاع لهيلاري ب ٣٠ دولاراً !!

بعد أربعين يوماً شُفيت هيلاري تماماً، لكنهـا تغـيرت جـداً ومـن عاشر القوم...

عمشة وثريا وزهرة وحلومة كُن يجلسن على عتبـه منـزل هـيلاري، يفصصن حبّ عباد الشمس، ويقمـن بتنقيـة البرغـل والأرز ويغتـبن هـذه وتلك، فُتح الباب وخرجت هيلاري داخـل ثـوب أحمـر معقوصـة الشـعر وكفّاها لونهما برتقالي- بعد وضعِ الخضاب(١) لها من قبـلِ رفيقاتهـا الأربـع- وقدماها محشورتان في نعـل زهـري اللـون، قالـت ضـاحكةً وهـي تنظـف أسنانها من اللحم بقشر عباد الشمس: "هَبيت نايس، كف مي چرز".

خسرت هيلاري الانتخابات وازداد وزنها ثلاثين كيلوغراماً خلال شهر، اعتزلت السياسة وانفصلت عن زوجها الذي لم يعـد يحتمـل شـكلها وجسمها البرميلي، وأصيبت بالنقرس بعد عام، وعندما لم تتحمل منعها من تناول الـهبيط أصيبت بالجنون وأدخلت مستشفى الأمراض العقلية وغيمة المنسف بقيت تحلق فوق رأسها ولسان حالها يغني:

Every night in my dream, I see you I feel you ,that's how I know you go on..

(١) الخضاب: الحناء

"مذلة" حمورابي

كان رجلاً في العقد الخامس من العمر، له من الوقار ما يكفي لأن تهرب عينك عند النظر إليه، يحمل في يده حقيبةً دبلوماسية، يقف قرب جامع هيبة خاتون في منطقة المجموعة الثقافية ينتظر سيارة أجرة. قلت له بعد أن أوقفها وبالكاد يسمعني: كان الأجدر بك أن توقف السيارة بعيداً عن طريق المارة. والسيارات خلفه تعزف سيمفونية فوضى ممزوجة بمواويل لسيارة إسعاف تكاد تتقطع أوتارها الهورنية من الصياح، وهو غير مبال تماماً. قال لي وهو يرفع أحد حاجبيه: حمورابي قال يوماً (وُضِع القانون ليُخترق)!.

كنت عائداً قبل أيام بسيارة من نوع كيا وأنا أتلذذ بلحظات الدللّوي محاولاً اقتناص غفوة إلى حين وصولي إلى منزلي، شدّني مشهد في شوارع المدينة لشخص كبير في السن، أخرج نصف جسمه من سيارته الكوكو وكان يصيح بصوت عالٍ: "الله يهجمها إن شاء الله". وكان الطريق معقود بخطة عشرة خمسة واحد تماماً كأبواب جامعة الموصل صباحاً. وعندما بدأنا بالزحف وشعارنا الوحيد (لا تسرع يا بابا بعدين تشبع طلقات) اكتشفنا أن سبب الزحام سيارة أحد الضباط من منتسبي المرور وهو يسير(رونگ ساید) مسبباً (اكشن) غير مسبوق وهو ينادي بمكبر الصوت: افتح طريقاً. التزمت الصمت حينها وكلّي يقين أننا نسير بخُطى ثابتة تجاه التقدم إلى الوراء.

في بلدي فقط القانون الوحيد الذي يطبق بحذافيره هو (لا وجود للقوانين). نحن البلد الوحيد الذي يتمنى أن يرجع به الزمن إلى الوراء! أيّ تقدم نتحدث عنه؟ كفانا كذبا على أنفسنا، صحيح أننا نتقدم لكن باتجاه التخلف، لا أدري لماذا يحضرني المثل الشعبي الذي يكون جزؤه الأول مشفراً (نحن مثل..... غريب). عندما نسافر إلى دول أخرى أو حتى عند ذهابنا إلى شمال العراق، نطبق القوانين حتى وإن كان السائح من فصيلة سيد الوقار، واللبيب (بالدفرة) يفهم.

مسكين القانون في وطني، عُلّق على مقصلة الخَرْق، فُصل رأسه عن جسده، أطلق صيحات ثم مات ولم يدفن، بل تُرك لتستعمل جثته للتمثيل بها، هو دمية يستعيرها من يشاء ليقضي غرضه منها ثم يتركها، فأنا اليوم أكفّنه بورقة بيضاء وها أنا أدفنه بين دفتي كتاب، علني أرحم قانوناً كان في يوم من الأيام سيفاً على رقاب الجميع، واليوم أصبح ربطة عنق ننزعها متى نشاء.

***

لوسيفر[1]

ما زلت وأنا أكتب هذه السطور أكره المستشفيات، فما إن أصل المجمّع الطبي حتى أُصاب بمغص يعصر أمعائي، ويزداد عند وصولي دائرة الطب العدلي، التي أشيح بوجهي عنها عندما أصلها، وما إن أدخل المستشفى حتى تقتحم أنفي رائحة (الديتول) الكريهة، التي اقترنت بماض تعيس عفن، تذكرني بأيام كان أبي فيها صاحب الخطط الجهنمية، يتحايل عليّ عندما أُصاب بالتهاب اللوزتين فيحملني على كتفه بحجة شراء (قمر الدين) من بقالة (ابن الشيخة) في أحد أزقة منطقة باب جديد القديمة، وفجأة ينحرف يساراً بحجة أن البقالة مغلقة لأطالع أنف حاتم المضمد المليء بالشامات المتدلية من أنفه كشجرة محملة بالأجاص. يفتح فمي ويحشر فيها خشبة مغمّسة بالمعقم، فيتقافز الطعام داخل معدتي منذراً بموجة قيء تحرق الأخضر واليابس، فيهرع بي والدي إلى الخارج؛ لأستنشق الهواء كي تهدأ معدتي الثائرة، ثم نعود إلى الداخل، وما إن تقع عينيّ على القِدْر وهو يغلي بالإبر (الستيل) التي انغرزت في آلاف المؤخرات؛ بسبب الحصار الاقتصادي، حينها يهرب مني هواء دافئ يلعن حاتم على إثره الشيطانَ الرجيم، وهو يحضّر حقنة البنسلين، ويخرج مَن في العيادة مصابين بالدوار، وفاقدين للوعي؛ ليقتنصوا شهقة أوكسجين. يرفع الحقنة إلى الأعلى فتتزحلق من فوهتها بضع قطرات ثم يهوي بها إلى مؤخرتي الخالية من اللحوم، فأطلق وابلاً من الشتائم، يستقبلها حاتم برحابة صدر وهو يضحك. ويحدث أحياناً أن يكون حاتم غير متواجد صباحاً؛ لارتباطه

بدوام في المركز الصحي، فتضطر والدتي عندها إلى أخذي إلى الحاجّة رفعة التي كانت ضعيفة النظر ومصابة بالرعاش، التي يساعدها الزبائن عادة في تحديد هدفها المنشود وليس عليها سوى التنفيذ !.

دخلت المستشفى هذه المرة على الرغم مني، فعمّي السبعيني أصيب بجلطة دماغية بعدما أجهز على طقم پاجة لوحده، أُدخل على إثرها العناية المشددة، ومُنِع الجميع من الدخول لإلقاء نظرة وداع أخيرة عليه، لا سيما وأن الطبيب المشرف رفع من معنويات الجميع حينما خرج قائلا بدون مبالاة: جهزوا أنفسكم وانصبوا الخيمة. ثم خرجت الممرضة بوجه مبتسم قائلة: "مريضكم أبو الپاجة مو"؟. فهززنا رؤوسنا بالإيجاب، قالت وهي تحبس ضحكتها: "مصبّح أمّسي، الحجّي أصلا منتهي". فأغشي على زوجته وتصاعد نحيب الجميع.

ممنوع التدخين، ممنوع الدخول، رقعتان متجاورتان عند باب العناية المشددة، قرأتهما وأنا أحشر قدمي في الواقي الأخضر المكدّس جانبا لمنع التلوث، بعد أن دسست في جيب أحدهم خمسة الآف دينار لقاء هذه الزيارة. كان صرير الباب بإمكانه إيقاظ أيّ مريض حتى لو كان في غيبوبة دهليزية. داخل الردهة أربعة أسرة معزولة عن بعضها بستائر خرائية اللون تبعث في نفس المريض اليأس والقنوط، انتقاها المسؤولون عن ذلك لتحمل أكبر قدر من الأوساخ دون أن يظهر منه شيء للعيان. آثار الدهون منتشرة عليها هنا وهناك فهي ستارة ومنشفة للمرافقين في الوقت نفسه. كان صوت أجهزة نبض القلب شبيها بمؤقت قنبلة، وشاشات مليئة بآثار

بصمات يقفز داخلها خط الحياة بشكل هرمي، وكمّامات أوكسجين تقبع فوق أفواه المرضى وأنوفهم، وجيش من الذباب يتزلج على النافذة في أقصى الردهة. مشيت على رؤوس أصابعي كراقصة باليه لكي لا أزعج المرضى المتواجدين، وتحايلت على موجة التحسس المرفقة بالسعال التي انتابتني من رائحة المنظفات التي دُلكت الأرض بها قبل لحظات لكي لا أوقظ أحدا.

جلست أمام عمي أنظر إليه بتفكّر عميق، فسمعت صوت حذاء يقرع الأرض أثناء المشي، فتح الباب ودخل رجل قروي يحمل بيده تقريراً يبدو أنه من طبيب المريض، قذف السلام نحوي بصوت مجلجل، هزّ أركان الصمت في الغرفة، واستفاق أحد المرضى على إثره. توجه نحو الراقد الذي تفصل بيننا وبينه ستارة واحدة، جلس جنبه وقال بصوت بائع غاز: "خال خال". فاستيقظ المريض ثم قال: "ابشر يا بعد عمّك، شون وضع أفّادي"؟. فأجابه أن قلبه مجهد للغاية، وأنه يعمل بنسبة أربعين بالمائة فقط. ثم قرأ عليه تعليمات الطبيب، و قائمة بالأطعمة الممنوعة وهي: لحوم الغنم، الهبيط، الدهون، وكل الأكلات الدسمة، وأن عليه من الآن فصاعداً تناول الأطعمة المسلوقة فقط. شهق المريض ثم طرد المرافق وبصق في وجهه، ولعن أباه وأمه قائلا له أن ينقع التقرير ويشرب ماءه، وأن الطبيب الذي أعدّه عقله في مؤخرته بدون شكّ، وأقسم أنه فور خروجه من المستشفى بخير وسلامة سيأكل " قوزي" لوحده !.

خمس دقائق مرّت عمّ خلالها الهدوء في الغرفة، وأنا أهمس بأدعية قرب سرير عمي. فجأة تسلّلت امرأة مسنة إلى الردهة تخفي شيئاً ما تحت عباءتها، ثم اختفت خلف ستارة مريضها الذي يرقد في الجهة الأخرى من الردهة. أجراس الفضول اهتزت ما أن رأتها على هيئتها هذه، فوقفتُ وسرت تجاههما كإنسان مُنوّم، تسمّرت قرب الستارة حينما سمعتها تقول له بصوت أقرب إلى الهمس بأنها جلبت له قطعة قيمر ليدهن بها "زردومه"، فانتفض من مكانه وانقضّ علي القيمر، وصوت مضغه الشره أيقظ الوحوش في معدتي الخاوية. ثم قالت مودعة بأنها ستعود إليه بعد ساعة بعد أن تكمل بعض الأعمال في البيت، وأن الممرض المسؤول عن الزيارات ابن حلال، وقد أعطاها زيارة مجانية، لأنها زبونة جيدة.

توقف نقيق أحد الأجهزة فجأة فهرعت إلى الممرض المسؤول عن الردهة في الغرفة المجاورة، الذي كان دميم الوجه قبيح الصوت _ وإني لا انتقص منه معاذ الله لكني أصفه بأمانة مطلقة_ فهو أشبه بتوفيق الدقن إلى حد كبير. رمى مبسم الشيشة جانباً، تمطى ثم تثاءب وسار بخطى متثاقلة أمامي، وتوجه نحو السرير رقم اثنين فوجد المريض قد توفى بجرعة زائدة من القيمر! رحمه الله وأحسن مثواه. غطى وجهه وتقدم نحو عمي ليعطيه حقنة، وفجأة رنّ هاتفه الشخصي بالآية الكريمة (وجاءت سكرة الموت بالحق) ففاق عمي من غيبوبته، وانتفض من سريره، فرأى الممرض وهو

يمضغ العلكة، فتعالى صراخه وهو يقول: اغرب عني يا ملعون يا عدو الله، إبليس اللعين.. إبليس، لن أحيد عن الإسلام. ثم انتصبت سبابته وهو يرتجف، نطق بالشهادتين بصوت متحشرج وهو يزدرد ريقه الجاف ثم فقد وعيه وعاد إلى غيبوبته بسلام. عندها انفجر الممرض ضاحكاً ثم أجاب على هاتفه قائلا بتميّع: "هلو حياتي".

***

(١) لوسيفر: ابليس

مستر فاتحة

"أبو التيشرت الأزرق" قالها بصوت مبحوح، كأنه أنهى لتوّه موجة سعال مزمنة. التفتّ فوجدت رجلاً خمسينياً بشرتُه غارقة في التجاعيد، ذا لحية بيضاء خفيفة، يضع فوق رأسه (عرق چين) لونه أخضر، تداعب يده مسبحة، عيناه تبدوان مشوهتين لسُمك النظارة، يفتش في مجموعة من لافتات الموتى في منطقة تقاطع النبي يونس(ع). قال لي بعدما لامست أنفاسه الحارة وجهي محدثة سحابة بخار حاولت يائساً تحاشيها: بُني، هل من الممكن أن تقرأ لي هذه اللافتة؟ لأني لا أجيد القراءة. وأشار بيده إلى لافتة بدت لي جديدة (تنعى عشيرة فلان فقيدها فلان الفلاني إثر مرض عضال وستقام الفاتحة في منزله في حي الصديق قرب جامع صلة الأرحام إنا لله وإنا إليه راجعون) قرأتها له فانفرجت زاوية فمه بابتسامة لئيمة ورحل.

(ينقر لو ينطح او وطني ام مولدة)، شيفرات يستعملها(العظامة) مرتادو مجالس العزاء خلال حديثهم مع بعضهم، سيما على الهاتف، وجميعها تدل على الطعام، فالذي ينطح او الوطني يرمز إلى اللحم الأحمر، والذي ينقر او المولدة يرمز للدجاج، ومؤخراً أُضيف مصطلح جديد وهو المسدس والذي يرمز لأفخاذ الدجاج، حسبما أخبرني به صديقي خالد عندما كنا يوماً في مجلس عزاء وهممت بالرحيل فشد ذراعي هامساً في أُذني: "وين طالع حظي وأكو وطني". وفك لي بقية الرموز.

الموت حق، قالها بحزن جاري أبو وسام بعدما تعالى صراخ نساء في آخر الشارع، أدركت بعدها أن الرجل المسنّ ويدعى حجي اكشن حسبما يطلق عليه شباب المنطقة قد توفى. فقد كان المرحوم يجلس على كرسي كهربائي متحرك، وقد اعتاد تحديهم مازحاً بأنه يستطيع أن يسبقهم وهم على دراجاتهم النارية (البطح)، ومن هنا اكتسب هذا اللقب.

توافد المعزون بعد ساعات من دفن الميت، وصدمت عندما رأيت في طليعتهم الشخص عينه الذي لقيته في تقاطع النبي يونس، صاح أحد الشباب خلفي مستغرباً: "ول ول مستر فاتحة جا". جلس أمام إخوة الفقيد، بدت ملامحه كأنه غارق في قاع الحزن، تطلّع إلى الحاضرين من خلف الدموع وقال: السلام عليكم.

تكرر المشهد ثلاثة أيام بوجباتها سواء كانت (وطني، مولدة أو حتى مسدس) فالمستر فاتحة لا يفرّق بين الوجبات إطلاقاً. المقيمون على تقديم الوجبات كموظفي البنوك يمسكون النقود ولا يمتلكونها، ولسوء حظي كنت منهم. لكن حضوره اليومي استفزني، فقلت في قرارة نفسي وأنا أعدل من هيئتي وقد اختمرت في ذهني فكرة: سأنال منك اليوم كونه الثالث والأخير.

تسللت داخل الخيمة عند حلول وقت العشاء في المجلس وكان (مولدة)، انغرستُ أمامه و المنسف شاهد علينا، ثلاثة أرغفة وكومة رز ودجاجة مستلقية على ظهرها، سدد نحوي نظرة متفحصاً شهيتي للطعام ليعدّ نفسه على أساسها، أوشكت المنازلة على الانتهاء، وحينما وضعت يدي

على قطعة ناجية من صدر الدجاجة التي أجهزنا عليها جاء صوت من تحت أضراسه قائلا: أتركها أتركها. لم استجب لكلامه فخطفها من تحت قبضتي بخفة لص، فحدثت بيننا مشاحنات صامتة ومشاجرات أثيرية دون أي كلمة، وقد بدا الانتصار واضحاً على وجهه. نفض حبّات الأرز العالقة بيديه ومسح شواربه ومضى من أمامي.

حلّقت كفاه عالياً: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم اسكنه فسيح جناتك. قالها مستر فاتحة بصوت متحشرج متخوم من الطعام، وأنا أجلس قربه، سكت قليلاً ثم التفت إليّ قائلاً: ما اسم المتوفى؟. فقلت بخبث: "حجي اكشن". رددها مرتين ثم سألني كمن ساوره شك: هل هذا اسمه؟. أجبته بثقة: نعم فهم ليسوا عرب القومية. عندها تأكد وتبددت شكوكه، انتصب من مكانه وقال أمام الجميع بصوت عالٍ: "والله كان حجي اكشن مثل أخوية، الله يرحمك ياغالي". استشاط إخوته غضباً وثاروا عليه.

المكان: المستشفى الجمهوري

الشعبة: العظام والكسور

الردهة: الصابونجي.

من شارع حلب يبدأ التغيير

أنا والكلاب السائبة والساعة السادسة والنصف صباحاً شاهدة علينا، وكما هو معلوم لدى الجميع أن المدينة قبل ٢٠١٤ كانت تعيش حالة من الفوضى على كافة الأصعدة، حينها كان عليك الخروج مبكراً جداً للوصول إلى عملك في الوقت المحدد، فالجسور تُفتح وتُغلق برفة عين، وطرق مغلقة وأخرى منسية وبين هذا وذاك مواطن لسان حاله يقول: "ماتنفعك غير رجليك". هذا في حال كان مسموحاً استخدامها، ففي بعض الأحيان يكون ممنوعاً أيضاً.

كان متكئاً على السيارة العسكرية، وفيروز تغني: "مرمر زماني يا زماني مرمر". واضعاً في فمه نصف سيكارة، وينفث دخانها إلى الأعلى، أشار إليّ بسبابته: تعالَ. نظر إليّ من خلف نظارته السوداء والتي بالكاد يُرى فيها خصوصاً وأن الطقس كان غائماً، وأطلق سؤاله: "من وين جيت ووين رايح"؟. فقلت: من البيت إلى الدوام. ما اسمك؟ قالها وهو يدخل إصبعه في أنفه، أجبته: محمد. قال: "أنت ماكو غيرك انت مطلوب". فقلت ضاحكاً: فعلاً أنا مطلوب "ثلاث أوراق". أي ثلاثمئة دولار، عندها استشاط مني غضباً وقال: "احجي عدل لا أخليك بالهمر". عندها ازدردت ريقي لأني أحسست أن الموضوع بدا جدياً، أشاح بوجهه عني ليلمح سيارة (همر) قادمة فركض ووضع رأسه داخل خوذته وصاح نحوي: "روح بسرعة روح، سويت بيك كاميرا خفية"!.

الحادية عشرة صباحاً، في هذا الوقت تتحول الدوائر الحكومية إلى مطاعم وتبدأ الروائح بالتسرب من الأقسام لتملأ المبنى، وليكن الله في عون المواطن الجائع الذي ينتظر خلف الشباك إلى حين انتهاء الموظف من الغداء ومن لعق الأصابع وشرب الشاي وتدخين سيكارة.

هاتف من أحد أصدقائي قال لي: إنا ننتظرك قرب باب الدائرة، انزل فشارع حلب في انتظارنا لتناول الغداء. لا أدري لماذا يحبذون هذا المكان بالذات!.(حبيب أمك ما تقبل من احاچيك.. روحي معلگة بيك) كانت تصدح في شارع حلب بعد أن وضع أحد أصحاب المحلات مكبراً للصوت على الرصيف ليسمع ذوقه الجميع، عندها انتابني شعور غريب، فأنا في شارع حلب وسعد الحلي يغني!. ملأنا كروشنا- بالفلافل طبعاً- وجلسنا في أحد المقاهي لشرب الشاي، والحديث يدور حول الوضع الذي آلت إليه المدينة، انطلقت حسرة من أحد أصحابي ليقول وهو يعضّ على أصابعه: "أووف بس لو أمسك هالمدينة". سألته وأنا أناوله سيكارة: وماذا ستفعل؟. قال: أول شيء أقوم به هو فصل جميع الموظفين وتعيين موظفين آخرين. ارتسم التعجب على وجوهنا فغمز لنا قائلاً: "لا تخافون انتو ما ابطلكم". ثم أكمل حديثه قائلاً: أقوم ببناء العمارات والأبراج والملاعب. عندها تراءت أمامي إحدى النائبات في مجلس النواب حينما سألتها المذيعة: ما هو مشروعك المستقبلي إذا أحرزتم نجاحاً في الانتخابات؟. فردّت باختصار: سوف أجعل الموصل دبي. سكتَ ثم قال وهو ينظر إلى بيوتات المكان: أعيد المجد إلى شارع حلب، فمن هنا يبدأ

التغيير. ثم أردف قائلا: سأنحت تمثالاً لسيدة هذا المكان "صبيحة سوپـر"؛ لأنه كان لها فضل على كثير من المسؤولين السابقين أو ربما كانت تلهيهم عن سرقة أموال الشـعب!. لا أريـد أن أظلمـه فـربما مشـــروعه خـيري ويريـد النهوض بواقع المدينة. أنهينا الحديث وأبو خالد مـازال يلاحقنـا بصـوته في مكان تحيطه الشبهات وتسكنه أرواح كتَبـت تاريخهـا الأسـود علنـاً وبعلـم الجميع، فأنا أحترمها أكثر من أولئك الذين يقومون بـما هـو أسـوء و فـوق رؤوسهم عبارة (هذا من فضل ربي) !.

***

شيراتون

قلت لـه خـبراً مفـاده أن ٩٠٪ مـن الأطفـال النـازحين السـوريين تتراوح أعمارهم بين الثالثـة والرابعـة، أي بعـد نـزوحهم مـن بلـدهم عـام ٢٠١١. وأنـا أناقشـه تنحّـى بعيـدا عنـي، ليتبـوّل في قطعـة أرض مؤثثـة بالنفايات وصوت الزجاج يتهشم تحت قدميه بعد أن عجز عـن إيجـاد دورة مياه صالحة للاستخدام البشري، وقف تحت عبارة (كلب ابـن كلـب الـذي يبول هنا) بالطبع هذه الجملة خضعت لعملية تجميل لتبـدو بريئـة كـما هـي الآن بعدما كانت مزركشة بمصطلحات شارع حلـب!. عقّـب عـلى الخـبر وهو ينهي مهمّته بصوت متقطع متراخٍ: أيعقل هـذا!. وعلامـات التعجـب تتسلق وجهه، ثم أتبع قائلاً: ما هذا التخلف وما ذنـب هـؤلاء الأطفـال أن يولدوا في خيمات وأن يعانوا الويلات!. ثم تحيـز للـوطن قـائلاً: العراقيـون المهجرون أفضل من غيرهم في هكذا أمـور وأكثـر وعيـاً. احـتج الطعـام في معدتي وكاد يثور من سخافة كلامه، ودعته وأنـا أتـذكر مـا حـدث لي قبـل خمسة أيام.

ناوَلني السيّد كما يطلقون عليه في المنطقة بطاقة الـدعوة وألـحّ عـليّ بالحضور، بل وأقسم أيضاً وقبلني وضرب كتفـي بكتفـه وابتسـم ورائحـة (المسك) الإسلامي احتلت ما بيننا. **(يتشرف السيد (مجول حمـد الزيـداوي) بـدعوتكم لحضـور حفـل زفـاف ابنـه (فيصـل) المقـام في مدرسـة الحـدباء النموذجية، وذلك في الساعة الخامسة عصراً، وبحضـوركم تـتم الأفـراح)**. قطبت جبيني ومططت شفتي كغوريلا مندهشاً مـا أن أدركـت أن العـريس

فيصل هو ذلك الشاب الذي لم يكمل عامه السادس عشرة والمهجر من مدينة الرمادي، والذي يسكن هو وعائلته مع بعض العائلات الأخرى المهجرة مدرسة غير مكتملة، يبيع حب عباد الشمس، يجود عليه بعض الناس بما يملكون من مال أو ما يفيض عنهم من حاجيات. بينما كنت أتمتم مع نفسي جاء صوت رجل مسن من خلفي يمسك بيده بطاقة الدعوة أيضاً قائلاً: "ابني الشغلة صايرة فيطي". ثم مضى.

سترة بيضاء مع بنطال أبيض أيضاً وقميص بنفسجي يتدلى فوقه ربطة عنق سوداء، وقدماه محشورتان داخل ترانشوز (Nike) أبيض يقطعه الأسود بخطوط متوازية، وعلبة جل موزعة بشكل غير متساوٍ على أطلال شعره المنتشر هنا وهناك، وخنصر مغمس بالحناء تحتضنها ورقة نقدية من فئة خمسة وعشرين ألف دينار يجاهد لكي يريها للجميع. جلست وأنا أتفحصه فرفع يده وحياني: "الله بالخير". فأجبته بمثلها مضيفاً إليها "أغاتي". كان الحفل في قاعة اجتماع الآباء في المدرسة، ينهمر صوت المسجل بهدوء، جهدت نفسي للتعرف على الأغنية فكانت (بطة وراكبة بطة)، فاهتزت قدميّ رغماً عني انصياعاً للأغنية فنهرتهما ولففت إحداهما على الأخرى وسرحت مع نفسي أرسم لحفلة زفافي سيناريو خاصاً بها، تتصدرها موسيقى الدانوب الأزرق ورقصات التانغو والفالس وأنا أمسك بيد أميرتي نتمايل على أنغام الموسيقى.

(شگل لأمي من أروح انكسرت الشيشة) صعقني صوتها الإنفجاري الزلزالي المدمر، إنها السيدة العنيفة المصارعة ساجدة عبيد،

قسمتني نصفين أنا وحلمي الذي هرع يركض على أربعة أطراف بعدما التفت نحوي وولى هارباً. ثار جميع من في القاعة من الشباب والأطفال وحتى الكبار وكأن جمراً تحت أقدامهم، بينما بقيت أنا جالساً أصفق وأوزّع ابتسامات، فأحسست بيد تسحبني كمن ينقذ غريقاً وزجّت بي وسط المعركة.

دخل المحتفلون الصف الثاني (ب) حيث تسكن العروس وأهلها ويتقدمهم العريس ليأخذ عروسه إلى الصف الثالث(أ) تسبقهم أصوات المحتفلين وهي تلعلع بأغنية (هاي الرادها وهاي التمناها) وسط زغاريد وحلوى أمطرت فوقنا. سرت ببطء خلفهم فجاء صوت إحداهن تقول لرفيقتها: إذا لم أكن مخطئة فشعر العروس مبالغ في صفاره. فضحكت الأخرى قائلة: هذا صبغ محلي، فأنا طليت شعرها به. ثم اقتربتْ منها قائلة بصوت يملؤه الفخر: "صبغت شعرها بالتايت". متبعةً القول: "خبصونا بجويل أم ال ام بي سي آخ شسوي لحظي"!.

عدد الأطفال يفوق عدد الكبار بمرة ونصف المرة ينتشرون في أرجاء المدرسة حتى تكاد تشعر أنك في دوام رسمي، أنوف مصابة بإسهال، أكمام تلطخت بمخاطٍ سس أحال القماش إلى ما يشبه الورق المقوى، وحلوى تسيل من بين أصابعهم وذباب لا يضاهيه في الكثرة إلا القمّل، وقد حوّل الأول أفواههم وعيونهم إلى منتجعات حتى أحسست لوهلة أن الذباب يحتفل معنا بل هو أول المدعوين أيضا وقد أقيم الحفل على شرفه.

سقطت الشمس في جوف المساء وحل وقت العشاء، اعتذرت وتحجّجت بأني غير جائع. ألصق عم العريس وجهه بوجهي، فطلبت من الله سرّاً أن يقتله فور أن أقلعت من فمه الكلمة الأولى لتجلب معها رائحة شبيهة برائحة الخوصر قائلا: "بالطلاگ تاكل". زحف الجميع نحو المناسف كجراد نحو النور فملأ الجميع كروشهم ومصمصوا أصابعهم ثم حشروا الصابون في أفواههم وتمضمضوا وبصقوا، وعجت أصوات الملاعق تطرق أقداح الشاي كأجراس الكنيسة، تسامر الجميع وامتلأت الأجواء بالكذب فكلّ واحد منهم أطلق العنان لمخيلته لتحضر المقولة الشعبية القائلة: (كلها چاي وچذب).

الصف الثالث (أ) دخل فيه العروسان وتسلل نظري ليجوب الغرفة، بطانيات عسكرية مصلوبة على الشبابيك لعدم وجود الزجاج، سرير مع غطاء يتوسطه قلب كُتب داخله (احبك حبيبي)، سجادة في أواخر عمرها ومدفأة كهربائية تلفظ رمقها الأخير، أُغلقَ الباب وتفرق الجميع، وبينما كنا في باب المدرسة توقفت سيارة من نوع اوباما، ترجل منها شاب وفتاة وأسرعا إلى الداخل، بعدها بدأت الفتاة بالصراخ: "ليش الثالث (أ)؟ ليش مو اتفقنا قبل ما أسافر آني دتزوج بي، يعني لأن نفه أخذه فيصل"؟.

دمبلة[1]

ما زلت أعمل بنصيحة ابن عمي الذي أعطاها لي عند ما كنت طفلاً، حينها كنت برفقته في منطقة الدواسة في إحدى ليالي العيد لشراء الملابس حينما قال لي: إياك أن تتجوّل وحدك في أزقة هذه المنطقة فقد يحصل ما لا يُحمد عقباه. وأصدر بفمه فرقعة شبيهة بصوت غطاء قنينة بيبسي حلّق في الأفق وضحك هو وصديقه ضحكةً مريبة لا تخلو من الغمزات والإيحاءات الأدبسزية. مرت السنوات وتذكرت ذلك وأنا أقف أمام باب أسود صغير رسم عليه بدقة بيكاسوية جمجمة وعظمتان يقع في أحد أزقة الدواسة الفرعية، يتوسط الباب درجاً ينتهي إلى طاولة يجلس عليها رجلان أحدهما على كتفه الأيمن وشم صقر يقتنص أفعى ويضع خلف أذنه سيجارة، أما الآخر فقد كان مشغولاً بهاتفه ويبدو من ميوعة حديثه أنه يكلم فتاة. لمحتهما قبل أن أصعد إلى فوق، لكني لم أكن بمفردي عاملاً بنصيحة ابن عمي، فقد كنت برفقة فواز أحد أصدقائي الفضوليين جداً، وشبيه الشيء منجذب إليه كما يقول المثل.

صالة تغص بالرجال من كل الأعمار يجلسون على كراسٍ خشبية قديمة تقابلها طاولات وأوراق بيضاء وصفراء تغطي أرضية القاعة برمتها، أقلام لم تنجُ من سطوة غضب الخاسرين التي حولتها إلى أشلاء، وكلمات نابية تحلق في الفضاء. ما أن دخلنا حتى أُمطرنا بوابل من النظرات، غمز لنا أحد الجالسين في الزاوية فتجاوبت معه بابتسامة بريئة كونه بعمر جدي، حذرني صديقي من ذلك فقطبت جبيني له بغضب فأشاح بوجهه عنا،

دُست على قدم صديقي محاولاً معرفة المكان الذي أنا فيه، قال وهو يقهقه ضاحكاً: أنت في قاعة الدمبلة، أحسست أن قلمك يشتهي نصاً كهذا فارتأيت أن أُطلعك على هذا المكان.

جلسنا وسط القاعة فجاء العامل بقدحي ماء، قلت بأدب متناه هل لديكم ماء مقطر؟ فجاءنا صوت أحدهم من الخلف: "عنزة الجربا ماتشرب ألا من ماي العين". فشدّني صديقي من ذراعي الأيمن قائلا: إياك أن تجيبه لأننا سنخرج من هنا مهشمي الأسنان إن بدر منك أي رد فعل. ازدردت ريقي وأنا أتصبب عرقا من الغضب، فالتفت إليه وضحكت مستسلماً وراضياً بتعليقه المستفز.

أرقام متفرقة مطبوعة على أوراق بحجم كف اليد، بعضها أصفر وبعضها أبيض مقسمة إلى ستة حقول بداخلها مربعات صغيرة تحمل كل منها رقما مختلفا عن الآخر، سعر الواحدة سبعة الآف دينار، وكرة حديدية مجوفة كبيرة في أقصى القاعة شبيهة بآلة الزمن مثبّت على طرفها ذراع حديدية تعمل على دورانها، وكرات صغيرة مطبوع عليها أرقام، ورجل طول بعرض بارتفاع، محروس من عين البشر والشياطين ينزّ عرقاً، وأريج الفودكا ينثر شذاه من فمه في أرجاء المكان، يعلن عن بدء اللعبة وينبه أن مدة توزيع الشاي المجاني لم يتبقّ لها سوى خمس دقائق؛ لأن دستور القاعة يقول بأنه من الساعة العاشرة حتى الثالثة يكون الشاي مجانياً، فطلب صديقي اثنين وجُلب لنا وكان أشبه ببول نعجة.

زاوية، خط، دمبلة هذه الكلمات هي اللغة الرسمية هناك، فمن تتراصف أرقامه في هذه اللعبة يربح، قال لي أحدهم ويُدعى ياسر عنفصو وكان يجلس قبالتنا ومن باب مدّ جسور التعارف بيننا، قال بأنه قد رأى في منامه يوم أمس أنه سيُدمبل هذا اليوم وأنه قد أطعم قبل مجيئه فقيراً لفّتي فلافل وقدح شربت زبيب على نية التوفيق، ثم طلب مني أن أشتري له ورقة لكوني جديداً ونقياً ولأنه ارتاح لي جدا فاشتريت ثلاث ورقات، اثنتين لنا والثالثة للسيد عنفصو، بسملَ وتمتم بالدعاء رافعاً رأسه إلى الأعلى وأمسك بالقلم.

ألو ألو قال صاحب الكرة وهو يهمّ بتناول الميكرفون معلناً عن الاستعداد لبدء اللعبة، فعمّ السكوت المكانَ وبدأ بتدوير الكرة الكبيرة التي بدورها تلد كرات صغيرات ونحن نشطب على إثرها الأرقام الواحد تلو الآخر، فصاح أحدهم من الخلف مصروعاً: خط. فنطق أحدهم بالكفر من الخلف ثم قال: "طارت أول خمسين ألف".واستؤنفت اللعبة وبعدها بلحظات صاح الآخر: زاوية. فاستلم مائة ألف دينار وبعدها بلحظات قفز آخر مهلهلاً: دمبلة. وانتهت اللعبة.

أصرّ صديقي قبحه الله على معاودة الكرّة فرفضت، لكنه أغراني بأنه هو من سيدفع ثمن الأوراق فاستسلمت لعرضه بسهولة، وأُعلن عن البدء من جديد. بدأنا الشطب ولم يفلح أي أحد بأي مبلغ، وهو ما يعني أن الفائز سيحصل على ثلاثمائة ألف دينار، بقي رقم واحد ويُعلن عن الفائز،

اكتملت لدي خانة كاملة ينقصها رقم واحد، ما يعني أن الكـرة إذا بصـقت الرقم سبعة وثلاثين وهو المفقود فإني سأحصل على المبلغ كاملا! بـدأ قلبـي بالخفق بسرعة، دارت الكرة وقلوب الجميع معلقة بها، هـدأت واسـتكانت وتدحرجت الكرة الصغيرة تحمل الرقم سـبعة وثلاثـين، فصـاح صـديقي: دمبلة. واستلمنا المبلغ فتجمهر الجميع حولي، ذاك يقول لي: اشـترِ لي ورقـة. والآخر يعطيني أخر ى لأمسكها وينتقل الحظ إليها ويفوز، إلا ياسرعنفصو الذي بقى في مكانه يتمايل الدخان من سيجارته التـي تعـض عليهـا أسـنانه المصتكة غضباً، طالعني بعين يتقادح منها الشرّ وهو يصك على أسنانه، قـال لي: "وجه الفگر ليش ما فوزتني"؟.

تقدم نحوي ياسر عنفصو بخطى مترددة يحمـل بيـده قـدحَي شـاي واستوقفنا ليقدمه لنا كعربون محبة واعتذار منـه عـلى مـا بـدر منـه نحـوي، جلسنا وشربنا الشاي وتحدث لنا عن النحس الذي قد أصـابه وبأنـه لم يفـز بأي مبلغ منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر، وأنه قد باع سيارته الكرونـا والتـي ورثها من أبيه شاتماً إيـاه وواصـفاً إيـاه بالسـكّير، وأن مـال السـيارة حـرام ولذلك لم يفز أبداً!.

أُسدل ستار عيني فجأة ولم أفق إلا ونحن مرميان على الرصيف وقد سُرق كل شئ منا عدا خمسـمئة دينـارٍ لكـل واحـد منـا ثمـن كيـا العـودة،

وصديقي قد أطلق العنان لحباله الصوتية التي التفت حول سمعي وهو يغني:" واقواق.. ماما جابت بيبي.. بيبي حلو صغير.

***

(١) الدمبلة لعبة قديمة ادخلها الإنكليز إلى العراق وتحوي على مجموعة أقراص بلاستيكية مكتوب عليها أرقام توضع في كيس وترج، ومن ثم وتوزع على اللاعبين كارتات كل منها يحوي جزء من هذه الأرقام ويقوم الحكم بإخراج الأرقام من الكيس وذكرها الواحد تلو الآخر وأول شخص تكرر جميع الأرقام الموجودة عنده يصرخ دمبلـــــة ويكون هو الفائز

فاليوم شائخ

من حسنات الصدف أنني زبون دائم للجيمسي التي كانت تأكل ثلث نهاري على الطريق المملوء بالسيارات بطيئة الجريان، ربما ذلك يجعلني أدخل الحظّ من أوسع أبوابه الوالتدزنية وأتصدر شاشات الفضائيات وأتسلق مانشيتات الصحف والمجلات العالمية، وربما أدخل أيضا سجل غينس الشهير على خبر أن اسمي سيُدوَّن إزاء اكتشاف أحد الألغاز الإنسانية التي لم يتوصل إليها العلم الحديث والقديم إلى يومنا هذا، ألا وهو خدر النعاس المباغت الذي يدهمك عند الدقيقة الأولى وأنت تتخذ مكانك على أي مقعد يحتويك في صالون الجيمسي. نوم مباغت يتعلق بأهدابك، يفرشها بأناة على وسادة أجفانك السفلى، فما هو السر العجيب فيه يا ترى؟ أهو مهد أم مرجوحة أطفال؟ لا ندري، فعند النظر إلى الناس الذين فيه من كبار وصغار نجدهم يغالبون نعاساً كافراً ما أن نمضي قدماً في رحلتنا الرائعة. وبعد انطلاق السائق وسط نفحات من دخان أسود في رحلة المائة دقيقة يبدأ النصف الأول بالنوم المنغّم بالشخير، والنصف الآخر يتأرجح ويحاول أن يقاوم النوم الجميل.

إنه شعور بالأُلفة والحنان الجيمساوي الذي يعيدنا إلى أشهُرنا الطفولية الأولى في أحضان أمهاتنا عندما تستحيل الجيمسي إلى مهد دللّوي يضحك في وجه حبوب الفاليوم واللبن المخيض(الشنينة) ويرسلنا إلى نوم هانئٍ ومريح يرفع من درجة الأواصر الاجتماعية بين توائم الجيمسي كلهم،

وذلك بالتزام الأخذ بأهبة النوم الطارئ في جمعيتنا جمعية النوم القسـري في الجيمسي.

في الأمس بينما كنا وسط هذا الهـدوء الجميـل والجـوّ اللطيـف فـإذا بمنبّهٍ بشريٍّ يفجّر رنينه الزاعق: "نازل نازل وين جبتني الله ينتقم منـك"!. كان هاتف جحيم أطار النوم من أعين الجميـع وسـط تمـارين سـويدية مـن أذرع التثاؤب الجماعي. هكذا رمى الحجي اللوم على السائق، وكأن السـائق كان مسئولاً عن نوم الرجل !!.

***

قبر متحرك
في مستشفى الجمهوري

بعد شتاءين على فراقهما قرر أن يشيع جثمان ماضيه ويواريه برماد الخيانة، يغلق نافذة وسادته التي يسافر منها إلى عالمها الأبدي، هو لا يطيق فراقها لبرهة من الزمن، حيث إنه أدمن مشاهدة شريط ذكرياته معها كل ليلة حتى المؤلمة منها، إلى حين أصبحت الذكريات تعلّم موعد استدعائها الدائم من قبله، فتتسمر أمامه كل ليلة. لمستُ بوح قلمي بأنامل ريبة فوجدت أن حرارة كلماتها حيّدها الثلج، إذن هو نص يحمل أنواء الفصول، دلالاته تحرق الصيف، تغري سبات الشتاء، تبرعم دفلى الربيع، وتهوي بأوراق الخريف إلى الأرض.

جلس قلمي على حافة مأساة الأوراق البيض آملاً أن يصطاد الكلمات المناسبة من قعر الذكرى ليروي هذه القصة التي تمحور فصلها الأخير من نثار أشلاء بؤسنا، فتات عشقنا الممزق. شتاء ٢٠١٢ قصة شاهدها الصقيع. بإيجاز، بعد أن عزم رشيد أن يبدأ حياة جديدة، ما أن تخرج من كلية العلوم، جامعة الموصل، قرر أن يطوي ما فات، أن يخاصم الماضي إلى الأبد، شد الرحال إلى النسيان فوجد عملاً في محل لبيع الكماليات في منطقة السرجخانة السوق التجاري المعروف، ولكن لا شيء سوى دموع تتسلل خلف قضبان العيون، وكلام وأده الصمت، ونظرات تبحث عن المجهول، وقلب يرتدي ثوب كبرياء فضفاض؛ ليخفي جراحه عن الفضول البشري. كان وسيماً وكل فتاة تتمناه، لكن هي وحدها من يعرف شيفرة

عينيه فهو مازال تحت تأثير حبها؛ لذا بقى يلمع قبر حبه لها، يزوره في كل ليلة ويسقيه من دموعه وينثر عليه الآهات وينام. قالت له والدته وهي تضع يديها على كتفيه: أما حان الوقت لتتزوج؟ أريد أن أرى أطفالك قبل أن يدوّن اسمي على قيد الموتى. استجدى ابتسامة مصطنعة ووضع قبلة على خدها قائلا: قريبا إن شاء الله. ومضى نحو الباب منادياً عليها: ادع لي يا أمي.

كان الجو بارداً فالرياح سجلت حضوراً قويا في المدينة، رذاذ مطر ينبئ بفيضان قادم، غيوم عقدت حواجبها السود في الأفق. أوقفَ سيارة أجرة وركب فوصل إلى الجسر العتيق ليراه مغلقاً أمام السيارات، ترجل من السيارة وبدأ بالسير، في منتصف الجسر أوقفه منظر شيخ مبتور القدمين يفرش الأرض بقطع العلكة ويتكئ على حديد الجسر، أحزنه المشهد فأخرج من جيبه ما قسم الله ووضعه بين يدي الرجل وراح يفكر فيمن هو أسوأ حالاً منه ثم توقف وأخرج من جيبه سيجارة أشعلها وراح يشهقها بحرقة، رماها نحو النهر وراح يرقبها وهي تسقط إلى أن انطفأت فاستدار وعبر الجسر. فجأة واجهه أناس يركضون بانحناء هرباً من الرصاص الذي ملأ الأفق ويصرخون: الله أكبر مواجهة مواجهة.

المستشفى الجمهوري، الساعة الحادية عشرة صباحاً، هناك التقيت برشيد، كان يجلس على كرسي متحرك وحده، فقد تركته والدته وذهبت إلى الطبيب لعلّه يشفق على حاله ويدخله؛ لأن باب غرفته توارى عن الأنظار من كثرة المراجعين. أجال بصره على الحاضرين ثم أنزل رأسه فهربت من

عينه دمعة، نظر إليّ قائلاً: ما أضعف البشر!. لم يُكمل حديثه فوالدته خرجت مسرعةً ودفعت به إلى غرفة الطبيب. موجة فضول اجتاحتني لترغمني أن الحق بهم فدخلت معهم، قال الطبيب وهو يطرق على ركبتي رشيد بالمطرقة: كيف حاله اليوم؟. قالت: لا جديد فهو يحرّك رأسه فقط أما بقية أطرافه مشلولة تماماً. سكتت ثم قالت بتردد: هو لا يستطيع أيضاً السيطرة على جسمه في طرح الفضلات. أجابها الطبيب وهو يشبك أصابع كفيه: إنّ الرصاصة التي أصابته فتّت الفقرة وأصابت النخاع الشوكي بضررٍ كبير، ولا علاج ينفعه سوى الدعاء.

أيتها المنارة الحدباء يا باشطابيا، أيها الجسر العتيق يا نهر دجلة أيها الثور المجنح يا صروح نينوى، إني أسمع بكاءكم وحزنكم الباذخ، أغلقوا أعينكم وصمّوا آذانكم فأمكم تصرخ ولا مجيب.

***

كولونيا [1]

وسط ضوضاء نصبت خيمتها الضاجة ولبست المكان رداءاً من إزعاج طال كل من يدخل بوابة تلك الساحة المسكونة بصخب السائقين وزئير محركات الجيمسي التي تعزف سيمفونية شيطانية تصم الآذان، الساحة كانت وما زالت بطلة تقارير تلفزيونية تقتحم شاشات الفضائيات بصورها التي ترسم الزوايا المعتمة في زمن التردي، لكن المسؤول المسكين يبقى مشغولاً حدّ الإنهاك في مواضيع أكثر أهمية، ربما هي الفيسبوك أو الزيارات الروتينية أو استعراض العضلات على شاشات التلفاز. وسط هذا الجو الرومانسي النادر الذي يحيط بالساحة شخص ينادي بأعلى صوته: "حدباء..حدباء..طالع". ركبتُ وكان الجيمسي قد أوشك على الامتلاء -أعني الامتلاء حد التخمة- تفرّست المكان بنظرة خاطفة لعلّي أجد مقعداً خالياً ضمن المقاعد الأخيرة التي عادة ما تجد عزوفاً عن إشغالها خاصة لدى الشباب الذين يفضلون الوقوف بدلاً من تلك المقاعد التي يطلق عليها بعضهم خانة الشوادي. وفعلا كان هناك شيخ متسخ الهندام تطلّع في وجهي راسماً على محياه دعوة لي بالجلوس في المقعد الشاغر بجانبه وعند جلوسي وفي اللحظة الأولى شممتُ رائحة نتنة نفاذة أشبه برائحة بصل متعفّن، وأثناء تحليلي لهذه الرائحة للتأكد من مصدرها بواسطة أنفي الذي أوشك أن يقول لي: ذاكرتي ممتلئة بالروائح الكريهة. التفت إلى جانبي فإذا برجل مسنّ جالس بجواري يضع بين قدميه كيساً من الخضار ومن دون أيّ مقدمات قال لي: إليك هذه الأحجية. وما إن نطق بالكلمة الأولى حتى هبّت رائحة أشبه بإعصار مدمر يجتاح شعيرات أنفي بدوامته البصلية،

فأحسست بأني في سوق المعاش،أو إني أغوص في بحيرة آسنة أكاد لا أصل سطحها، وفي هذه اللحظة بدأت وجبة غدائي بالتظاهر والارتطام بجدران معدتي، فتحمّلت الرجل آملاً أن يتوقف عن الكلام لكنه أكمل حديثه قائلاً: إذا أجبت على أحجيتي. ثم قرب وجهه ناحيتي وقال: سوف أعطيك هذا البصل الذي اشتريته للتوّ، ما هي الكرة الذهبية ؟. فأجبته وأنا متقطع الأنفاس، وأحاول جاهداً أن أبتعد بوجهي عنه خشية أن تصدر نوبة قيء أرسلت إنذاراتها الأخيرة إلى كل جسدي: إنها طبعاً تعود لإحدى الفرق الرياضية. فقهقه ضاحكاً وكدت أصاب بالغثيان من رائحة فمه التي زادت الطين بلة، أجاب جليسي: لا يا بني هديتك التي كدت أن تحصل عليها لو أجبتني هي الكرة الذهبية لما فيها من منافع غنية وقد قال عنها المؤرخ هادي ديتول- وهو يقصد هيرودوت المؤرخ اليوناني القديم-: (عجبت من المصريين كيف يمرضون ولديهم البصل والليمون). سألته: يا عم هل أنت مصري؟. فأجابني: نعم انتقلنا إلى العراق منذ فترة طويلة، وكان البصل لدى أجدانا القدامى فاكهة، وأنا سرت على خطاهم أتناول يومياً قبل الإفطار بصلتين. كانت ضربة حظ قدحت في رجائي جعلته يتوقف عن الحديث، إذ توقف الجيمسي بسبب عطل مفاجئ فترجلت منه؛ لأعانق الهواء النقي وأنا ألعن أجداد هيرودوت واليونان واليونانيين ومصر والمصريين وآكلي البصل أجمعين.

***

(١) كولونيا:عطر يرشه الحلاقين على زبائنهم بعد الانتهاء من الحلاقة

دعاء دليفري

كدمى يحركنا القدر بيده، تصلنا به خيوط أمل فقدت أملها وانقطعت، فأصبحنا لا نلوي على حركة وبقينا على أرض الحياة عاجزين عن الحراك تحت رحمة عواصف ورياح السذاجة توجِّهنا كيفما شاءت. سأكون بمعزل عن العالم، أرقب الحياة بعين شيخ بلغ من الكبر عتيا، لا أدري كيف أصف هذا الشعور، هل أُصبت بمرض اسمه ثم ماذا؟. حققت جزءاً كبيراً من حلمي، دخلت مجال رغبتي من باب آخر، أمر تثبيتي كموظف دائمي ينتظر توقيعاً في قسم الموارد البشرية، سأدّخر المال واركب سيارة دفع رباعي كما يفعل أغلب موظفي أقسام الحسابات في الدوائر ثم ماذا؟. تباً لأسنان تلك السنين التي تنهش أعمارنا بنهم وشراهة ونحن لا نستطيع فعل شيء سوى الاستسلام.

ارتدت السماء ضوءها، علقتْ قرص الشمس على ثوبها الأزرق، رنّ منبه هاتفي ليعلن عن يوم سخيف آخر بانتظاري، أفقتُ والبعوض برفقتي وأنا أتصبب عرقاً، كان بيت دائي هو الآخر قد أعلن حظراً للمأكولات، فخرجتُ وأنا مطبّق الحظر. استقلّيت سيارة أجرة ووصلت إلى مكان عملي، وأنا أمر قرب المتحف وسط مدينة الموصل- والذي كان يشهد وقتها إعماراً-مررت بمتسولة فأطلقتْ دعواتها المباركة تجاهي وأنا أسير: "الله يخليلك شبابك محتاجة". استشطت غضباً منها فعدت إليها وقلت لها: من سمح لك بأن تدعي لي؟. مطّت شفتيها وشبكت حاجبيها وقالت: "أنت مخبول؟ روح ابني روح". تناولت محفظتي ولوحتُ لها

بخمسة آلاف دينار وقلتُ لها: سوف أعطيك إياها ولكن بشرط، أن تقطّعيني إرباً بدعائك ابتداءً بـ. وقبل أن أكمل كلامي أطلقت أولى دعواتها: "الله يفش عضلاتك، يارب تجيك مفخخة ما يلقوك". بدأتُ ابتسم وأقول لها أكملي: "الله يقص راسك، ويارب هالسنة ما تعبر عليك، إن شاء الله تموت يا ابني، إن شاء الله طلقة براسك ما تلحق المستشفى". رفعتْ كفيها إلى السماء مرددة: آمين آمين. ومررتْ يديها على وجهها بخشوع، فأعطيتها النقود ومضيت.

بعد أمتار سمعت صراخها، التفتُّ فإذا بالعامل الذي ينقل الإسمنت إلى المتحف قد أوقع السطل عليها، نظرتْ إليّ وصرخت: "ارتحت" ؟؟. لم أجبها، ابتعدت عنها فأدار الفضول رأسي مرة أخرى تجاهها، فصرخت بـ: "هه، أول مرة أشوف سيد سبورتي".

***

رادار

إنها في أيامها الأخيرة، تلك الجيمسي التي تقف يائسة لا تلوي على شيء أمام سرطان الصدأ الذي تفنن في رسم تقرحاته على طلائها الأبيض، كانت كريمة العين في داخلها ركاب جيوبهم تغني أغنية الإفلاس بينما سياط الشمس الملتهبة تجلدهم كأسرى، وكان ذلك الجلاد الآخر- أعني به السائق- يقف متكئاً على بابها محتضناً علبة ماء مثلج ينادي: "طالع طالع". عندما أقبلتُ بخطوات مترددة نحوهم فقال: لي؟. أجبته بملءِ فمي: نعم. فابتسم وكاد أن يطبع قبلة على خدي وقال: اركب الحمد لله فُرِجت. حضوري الناقوسي أيقظ بعض الركاب الذين رسم العرق على ملابسهم خرائط عالم مجهول، ما إن وضعت قدمي فيها حتى شممت رائحة معقم طبي يعج في المكان وكأني دخلت صالة عمليات مشفى ما، كان الجيمسي- خاوياً على أعجازه فقد استأصل الزمن كافة أحشائه ولم يبقَ منه سوى الكراسي، عذراً أيتها الكراسي في الأرض قاطبة فقد ظلمتك في قولي هذا فالحقيقة أنها كانت أشباه كراسٍ. تقدمت مجتازاً الحواجز التسوّقية التي يفرشها الركاب عادة في وسط الممر، جلست وما إن هممت برفع نظري حتى وقعت عيني على ذلك الصندوق المائل إلى اللون الأبيض وعليه آثار أصابع مغمسة بزيت السيارات الأسود والگريز، كان مثبّتاً فوق رأس السائق وفيه بعض المعقمات الطبية وشاش وبعض المستلزمات الطبية، وكان

وجهه الزجاجي المهشم يعكس مدى حاله البائس مع ذلك الهلال الأحمر الذي بدا وكأنه في حالة خسوف نهائي. داهمني الاستغراب لحظتها عن سبب وجود الخزانة الطبية هنا! وما إن بدأنا نحبو حتى اقتحمنا ذلك الصوت مع تمايل كراسي الجيمسي وكأننا في أفعوانية مدينة الألعاب فقال السائق: "والله دمرتنا الطسات". وجُرِح على إثرها أحد الركاب في رأسه فضحك السائق وقال: "بسيطة لا تخافون آني ماخذ احتياطاتي". فأعطانا شاشاً ومعقماً من الصندوق، حينها أدركت سبب وجود الخزانة. تطوعتُ بالجلوس قرب السائق لأرصد المطبّات التي أصبحت تخطف أسماء شوارع المدينة، وما إن وصلنا فجأة مطباً خطيرا حتى صرختُ: تمسكوا، أقبلنا على مطب. كم تمنيت عندما كنت في المرحلة المتوسطة من دراستي أن أكون عسكرياً، وأن أتخصص بالرادار مستقبلًا، اليوم تحقق حلمي لكن بطريقة أخرى، حيث أصبحتُ راداراً يكشف المطبات! فكم أنت كبير أيها الجيمسي؛ لأنك حققت أمنيتي.

***

الصيدلي FBS

لم يكن طوله يتجاوز المتر ونصف المتر، لكن صوته كان عابراً للكيلومترات حينما داهم سمعي صوت ذلك البائع الذي يصيح بأعلى صوته المبحوح- وحسب توقعاتي من فرط المشروب- إذ كان يصيح: "أنواع الأدوية بربع لگي بيدك اغاتي". وحوله عدد كبير من الناس، حتى يكاد يكون متوارياً تماماً عن الأنظار. قادني فضولي المدلل ليوقفني معهم وأنا أتأمل انشغالهم بتلك الأدوية المفروشة على لوح خشبي وقد قُسمت إلى أنواع وكل مجموعة تحمل اسم مرض معين، تسلل سمعي ليسترق ما دار بينه وبين رجل تجاوز الخمسين بهمس مليءٍ بالكلمات الأدبسزية، خاتماً حديثه بقوله: والله حديد. وأشار إليه أن يبحث في تلك الأنواع التي يخفيها تحت اللوح الخشبي قائلا: "بس هاي القطعة بخمسمية"، وهو يغمز له. كانت الغيوم قد عصرت ثيابها على البسطة مما دفع البائع إلى تناول اسفنجة ليجفّف المستحضرات الطبية التي تبللت، كان بجانب البسطة لوحة إعلانية لمسكّن الآلام باندول استخدمها البائع كبطاقة تعريفية للمكان، رزمة الأموال بيده ذكرتني بعمال محطة الوقود، كل هذا يجري في الساحة المقابلة لمبنى محافظة نينوى، ومازال الإقبال يتزايد حتى عجزتُ عن الخروج من ذلك الكرنفال الدوائي.

قبل أيام عدة، كنت في زيارة روتينية إلى بيت جدتي، عندما دخلت غرفتها التي تفوح منها رائحة الأدوية، كانت جالسة تسب وتشتم إحدى الشركات الدوائية التي كما سمّتها هي هورلندية بعد أن اتكأت على كرسي وبطنها منفوخ بعد تناولها لهذا النوع الجديد، بعدها سردت لي المناشئ

والاستطبابات لكل دواء حتى أحسستُ أني أجلس مع صيدلي تخرّج للتو من الكلية، داهمني ساعتها مغص شديد فرمقتني من خلف نظارتها بنظرة عتاب، وكأنها تريد أن تقول لي: لا تهتم فأنا موجودة. ثم مدت يدها وسحبت تلك العلبة الحمراء التي بالكاد تغلق وبدأت تبحث عن الدواء فأعطتني علاجاً أوقف المغص في الحال !.

مكالمة سريعة بعد منتصف الليل من صديق مصاب بوسواس قهري يفزع ما إن يُصاب بأبسط الأمراض ويفقد الوعي عندما يرى المضمد يجهز له الحقنة. قادني معه إلى إحدى مستشفيات المدينة، بعدما أصابته لفحة برد بسيطة، وزادت حرارته عن الطبيعي درجة، شخّص له الطبيب الحالة وأعطاني وصفة العلاج، انضممت إلى طابور الاستلام ولم أكن حينها منتبهاً إلى الصيدلي الذي يختفي وجهه خلف الشباك المظلل، لكني أدركت أنه (إف بي إس) من زيّه المرقط، وبعد أن أمعنت النظر فيه أيقنت تماماً أنه ذاته الشخص صاحب البسطة التي رأيتها في باب الطوب، اقتربت منه وهمست في أذنه: ماذا تفعل هنا ألم يكن لديك بسطة؟. فأجابني وهو يتبسم: "الحمد لله فتحها وتعينت اف بي اس". قلت له مندهشاً: إذن ماذا تفعل في غرفة الصيدلة؟. أجابني: ذهب الصيدلي لينام، وأنا لكوني اكتسبت خبرة من مهنتي السابقة أقف هنا وأساعده. حينها جاء صوت رجل كبير وهو يسب ويشتم من خلفي لأكتشف أنه أعطاه دواءاً مضادّاً للامساك بدلاً من دواء الضغط !!.

***

زاجل G7

ليت الهاتف الأرضي يعود تمتمت بهذه العبارة مع نفسي وأنا أهم بالذهاب إلى تلال حي العربي؛ لأصطاد شبكة اتصال لهاتفي المحمول؛ وأنقل إلى جدتي التي التحقتْ بركب النازحين إلى أربيل شوقَ والدتي إليها، بعدما قطع داعش الاتصالات عن المدينة بفترة قصيرة، ما إن ركبت السيارة حتى ذرقَ الطير على الزجاج الأمامي، ضحكتْ والدتي قائلةً: لا تقلق إنه خير. بقصد تلطيف الجو، لا سيما وأن ثنية اللحم بين حاجبيّ وعينيّ الحمراوين كانتا علامة واضحة لوصولي إلى أعلى مناسيب الغضب، ثلاثون شخصاً أو يزيد متجمعون فوق التل، أيادٍ تلوّح يميناً وشمالاً، هواتف تسبح في الهواء، أحذية مغمورة بالوحل، ضجر واستياء يغلف المكان بأكمله، باعة رصيد ينادون، عربة باقلاء يتعالى منها البخار، وطفل يرتدي جلباباً لونه سمائي وشعره هائش وقذر يضع فوق رأسه صينية معكرونيا ويصيح بصوت مزعج: "حلّي بربع".خمس وأربعون دقيقة مضت وأنا أحاول لكن دون جدوى، تشنج إبهامي وداهمني اليأس فقررت النزول، وأنا أهم بالمغادرة صاح رجل خمسيني: الو، فقال الجميع فرحين: "حصّل الحجّي".وأحاطوا به رافعين نقالاتهم عالياً بعد أن دبّ الأمل فيهم من جديد وأصبح المكان مباركاً بحيث لم أجد موطئ قدم فيه، قررت العودة محمّلاً بغضبِ مَن استيقظ في وقت المغرب، وأنا أنزل أحسست بيد تمسك بقميصي من الخلف تبعه صوت ذلك الصبي قائلاً: "عمو الله يخليك حلّي بربع"، فصرخت في وجهه بصوت ممزوج من الغيظ والثوَران، بال قطرتين على نفسه ثم تراجع أمتاراً ومضى بعيداً.

غادرت وأنا مثقل بالتعب ومزدحم بالأفكار، كيف سأتواصل مع أصحابي وأقربائي وكيف سأتأقلم مع الوضع الجديد؟ مرت من أمامي صور أولئك العاشقين الذين تعرض أغلبهم لسكتات عاطفية، وأولئك الفتيات اللائي كان الهاتف رجلَ حياتهم. كان اليوم التالي يوم جمعة وعقب خروجي من صلاة الجمعة التقيت مصادفة بجاسم جريمة وهو متخصص في بيع الطيور فضحك عندما رآني ليكشف عن أسنانه التي لم يبقَ منها سوى خمسة، ثلاثة منهم قضمهم التسوّس، تجاذبنا أطراف الحديث ليقودنا الكلام أخيراً حول الاتصالات، فضحك بخبث قائلاً: "والله آني عندي زاجل تحفه هو يوصّل رسايلي"،استفهمت بإيماءةٍ فقال: من حقك أنك لا تصدق إنه طائر ذكي جداً يقوم بتوصيل الرسائل حيثما أشاء. بداية الأمر ظننته يكذب، لكن عندما أخذني إلى بيته وأرسل أمامي إلى بيت عمه رسالة والذي يبعد عن منزله عدة أزقة عند ذلك صدّقته، ثم أصريت على شرائه منه، قال مستغلاً اندهاشي: لا أبيعه بأقل من مئة وخمسين ألف دينار والمباع لا يُرجع، وأنا سأدلّك على كيفية استخدامه. اشتريته منه وكتبت رسالة إلى شخص طال غيابه يسكن خارج الموصل، لففتها على ساقه وألقيت به عالياً فذرقَ على سترتي وطار بعيداً، وبعد خمس دقائق عاد مرة أخرى يحمل جواباً! فرحت وأسرعت لفتحتها فوجدتها من جاسم جريمة! وقد كتب: "حبيبي أبو جاسم رسالتك ما راح تصل عبن هذا الزاجل بس يشتغل داخل الحي روح العب بعيد".

***

أحلام 3XL

كنت ليلة أمس أفتش في قبو الذاكرة عن ذكرياتي الوردية التي عـادة ما أوقظ غبار النسيان الذي يستلقي فوقها، وأثناء ذلك عثرت صـدفةً عـلى لحظات تعود بي إلى الطفولـة لأيـام الابتدائيـة، لقطـات يتسـيدها الأبـيض والأسود وتعلوها يافطة مدرستي (الحويزة) المختلطة التي تقطن قرب محطة قطار الموصـل الحديديـة. كنـت حينهـا في الصـف الأول الابتـدائي، أحمـل حقيبتـي الثقيلـة ذات اللـون الرصـاصي والتـي هـي نصـف وزني تقريبـاً، يتوسطها ماركة شركة جلود، يطل منها برأسه كتاب القـراءة كبـير الحجـم، تذكرتُ مقاعدنا الخشب مسمارية والتي تشكل المسامير ثمانين في المائة منهـا، كنت أجلس في المقعد الأول لكوني قصير القامة، أو كما يسموني چكـوچ أو زقـچ، يجلس بجانبي فتحي ابـن بنـت الحارسـة أم فاطمـة، جلـده مـرقش بالنمش، لون شعره أحمر وكان القمل قد اتخذ منه فنـدقَ خمـسِ نجـوم، أمـا ينابيع أنفه فلا تتوقف عن الجريان في جميع فصول السـنة، تفـوح منـه شـتى أنواع الروائح بعضها من فمه وبعضها من مؤخرته، كان حفظـه الله ملتقـى لجميع أنواع الأمراض الموسـمية وغـير الموسـمية. كانـت معلمتـي السـت بشيرة تناهز السبعين عاماً، حقيبتها مملوءة بالأدوية ابتـداءاً مـن الباراسـتول وانتهاءاً بـالانتر ستوب، طبعاً بالإضافة إلى بخاخ الربو الذي لا يفارق يدها والذي أسرفتْ في الآونة الأخيرة في اسـتخدامه عنـدما افتتحـت أم فاطمـة الحانوت المدرسي وجعلته مطعماً للفات الفلافـل واللبلبـي، فتكاثفـت منـذ ذلك اليوم جهود الطلبة في إطلاق الريح المعبقة بعبير المنفخات، الـذي أدى

في يوم من الأيام إلى ارتفاع صوت شهيق الست بشيرة وهي تحشر في فمها البخاخ وتقول بصوت متقطع الأنفاس: افتحوا النوافذ والأبواب بسرعة.

سألتني يوما كوني أجلس في المقعد الأول: ماذا تحب أن تصبح عندما تكبر؟. كانت أحلام الأطفال جميعاً لا تتعدى الطبيب والمهندس والطيار، أما أنا فكانت إجابتي مختلفة وهي: مذيع سييت، وأنا أمط التاء مطّا كقحبة ملتهبة، قالت لي: إن شاء الله تنجح وتكبر وتصبح ما تتمنى وأتباهى بك في التلفزيون. وقتها سألتُها بعفوية: "ست راح تبقين عايشة لما أكبر"؟. فقهقهت وقرصتني من وجنتي، انتقلت بالسؤال إلى فتحي فأجابها بأنه يحب أن يصبح عامل نظافة، فغضبتْ وضاق نفسها وأخرجته من الصف.

أعدت تلك الذكريات إلى مكانها وأنا أبتسم وفكرت في حالي اليوم، كان فتحي على حق عندما كانت أحلامه صغيرة الحجم- سْمول- وكانت أحلامي كبيرة- اكس اكس اكس لارج- لكن أنا على يقين من أنه حققها الآن، إنه أفضل مني، أما أنا فأقف على شفا اليأس متحسراً، بضعة أمتار تفصلني عن الاستوديو في الفضائية التي أعمل بها[1]، أعدّ النشرة الاخبارية كطبق شهي يلتهمه زملائي المذيعين المسجونين داخل القناة خوفاً من عبوة متطفلة أو كاتم أو هجوم مسلح. الشعور بالعجز مرعب وإن الضوء الذي في آخر النفق أدركنا أنه نار مستعرة ثم استحال دخانا أسود قاتما غلف الأفق، إلى متى تبقى هذه الصخرة جاثمة على أرواحنا؟ لاهي تقتلنا ولاهي تدعنا نعيش، إلى متى ودقات قلب المرء قائلة له: إن الحياة

دقائق وثوانٍ؟ أنا وجلٌ من أن أدرك حلمي في يوم من الأيام، وما إن أتحسسه حتى يأتيني إشعار يقول: عذراً عمرك غير كافٍ لتحقيق الحلم، الرجاء المحاولة في الآخرة.

***

(١) الوضع الأمني في مدينة الموصل قبل ٢٠١٤ كان سيئا جداً وخصوصاً على الإعلاميين، و صنفت المدينة على أنها الأخطر في العالم على الإعلاميين وقد استشهد العشرات منهم خلال تلك الفترات

سكود[1]

قديماً قالوا: (الحسود لا يسود) و(عين الحسود بيها عود)، لكن اليوم الآية مقلوبة تماماً، فالحسود يسود وعيناه فيهما البركة.

أم داؤود تسكن بيتاً ذي طابقين يرتدي اللون الأخضر، ومن جبهته تتدلى أم سبع عيون، مقلتها أقوى من أشعة الليزر كما وصفها أبو تحسين مختار المنطقة، فبمجرد مرورها في المنطقة يحدث حظر للتجوال، ومن يقع في شراكها لا تتوقف شفتاه عن التمتمة بالأدعية وقراءة المعوذات، حتى إن أحدهم قال لي بأنه في أحد الأيام ومن خوفه منها نسي المعوذات والأدعية فأنشد (طلع البدر علينا) كونه نشيداً مقدساً حسبما قال سامحه الله.

أنا شخصياً لم أكن أؤمن بهذا الأمر، إذ كنت أعتبره من مبالغات أهل المنطقة إلى أن جاء اليوم الموعود وحدث ما حدث.

السادسة والنصف صباحاً وقبل تغريد قناني الغاز وزقزقة بائعها صرخ جرس الباب، كنت ساعتها قد استيقظت تواً، فتوجب علي الخروج بعد أن زعق الجرس ثانية وثالثة، طالعني من تحت الباب قدمان داخل نعلين أحمرين مزخرفين بأظافر طُليت بالبنفسجي مشكّلة لوحة فسيفسائية باهرة، عدّلت من هيئتي بسرعة ظناً مني أن فتاة جميلة تقف خلف الباب، فتحته فإذا بأم داؤود مسمّرة أمامي داخل دشداشة مزهرة وحجاب عُقدتُه تشكّل لاءاً مقلوبة، قالت: "صباح الخير أبوي محمد، ما عدكم فد خمس بيضات للفطور من نشتري نرجعهم". كنت في حضرتها وأنا مصدوم، فمن كثرة الأقاويل التي سمعتها عنها انتابني نوع من القلق، دخلت إلى المطبخ

وجلبت لها البيض فشكرتني وغادرت. قلت في نفسي: يا لهم من أناس اتهموها زوراً، ها أنا ذا لم يحدث لي شيء. جهزت نفسي للذهاب إلى دوامي، فتحت باب البيت وركبت السيارة وأنا أرجع إلى الخلف داعبت الرياح باب البيت فقبّل السيارة من خدها ناقشاً تاتو على شكل أمواج في بابها الخلفي، لم أعر للموضوع أهمية، مررت ببابها فعانق صوتها أذني: "لحظة حمودي وين طريقك"؟ قلت: إلى الدائرة، فقالت: "زتني بطريقك عالشارع". ركبتْ وأوصلتها فترجلت وقالت: "الله يحفظك سيارتكم سريعة كلش". بعد أمتار اصطدمتُ برصيفٍ والفضل يعود لهمر الجيش التي كانت تأخذ قسطاً من الدردشة مع شباب الحي، وصلت إلى مكان عملي ركنتُ السيارة ودخلت الدائرة، بعد لحظات سمعت صوت انفجار قوي يهز المكان، خرجت مسرعاً فإذا بسيارتي قد فقدت أطرافها وتموج سقفها، هنا أيقنت تماما بأن أم داؤود فول اوبشن.

بعد أيام من الحادثة التقيت بصديقي الذي يكون بيته ملاصقا لبيتها المبارك، قصصت عليه ما حدث فقال ضاحكا: "بالريش يمعود أنت الله يحبك، أم داؤود شغلها شَلَل وشيل إيدك". وقص علي حكاية زوجها الذي كان يلقب بالوحش لضخامته وطوله وقوته، لكنه توفي متأثراً بعينها، والموضوع حدث عندما تعرض داؤود- حفظه الله- للضرب من قبل أطفال المنطقة، فجاء إلى والدته المحروسة يبكي شاكياً، والتي قالت له: "اسكت جبان شوف أبوك من يمشي يهز الكاع". ثم مع أذان المغرب أُصيب أبوه بالشلل، وفي الصباح كان عبد الباسط عبد الصمد يقرأ (يا أيتها

النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية). عندها توجهتُ إلى دارها وطرقت الباب، طلّت فقلت لها: "خاله أم داؤود سمعتي آخر خبر؟ إيران اختاروها أجمل بلد بالعالم". فردّت وهي تحرك فمها وأنفها يميناً ويساراً: "ممم مو مثل حظنا الزفت". أبشري إيران فعين أم داؤود قادمة.

***

(١)اسم لسلسلة من الصواريخ البالستية التكتيكية التي طورت من قبل الاتحاد السوفيتي خلال الحرب الباردة وصدرت بشكل واسع إلى دول أخرى لاسيما العالم الثالث

ربع أخمس

صرخت الحاجة رازقية بحرقة وهي تبكي وتضم سترته الأثرية السوداء إلى صدرها ثم ترفعها إلى أنفها الذي يسيل منه الشسمه وتشم السترة بقوة وتقول: "رحت يمه عمود البيت بعز شبابك"، ووَلوَلت: "يمه مروان الثوب الأبيض تركته". - بالمناسبة فالرداء كان أبيض فيما مضى و استحال بعد سبع سنوات خدمة إلى أبيض قاتم تطفو جزر قهوائية على سطحه هنا وهناك، فقد كان المرحوم مروان يرتديه منذ أن انتقلنا إلى بيتنا الجديد في حي البريد عام ٢٠٠٨- ثمّ أخرجتْ هاتفه الشحاطة ورفعته بيدها التي تتمايل كأفعى وأنارت الشاشة وقالت وعويلها يرتفع: "يمه الموبايل منصوب عالفجر يمه وليدي الصلاة تناديك وينك يمه". هنا لم أتمالك نفسي وأنا على يقين أن مروان الذي أتمّ عامه الخمسين لا يحفظ سورة الفاتحة، ولم يصل يوما إلى المسجد- حسبما أفادت مصادر أرشيفية في المنطقة - فانسحبتُ من بيتهم الذي يفصله عن بيتنا شارع واحد؛ لأصادف مؤيد فايروس وعادل تعاطي، قال عادل وهو يرفع حزامه يميناً ويساراً إلى سرته مقاوماً هزات كرشه: رجعنا تواً من مقبرة التلفزيون وأتممنا الحفر، مسح بظهر يده على جبينه الذي كان يتصبب عرقاً وواصل: "الطين بارد ثلج ونحنا بتموز والله من روحوا الطيبة". ثم أضاف مؤيد وهو يتجشأ لينثر رائحة البصل في أرجاء المكان ويسحب عوداً من بين أسنانه قائلاً: "قطن والله مو طين قطن".

مروان رجل عازب صاحب تاريخ حافل بالنضال، فقد نشأ في بيت مفكك أسرياً، كان يعمل في التهريب إبان النظام السابق وألقي القبض عليه ووُضع في السجن ثم أُطلق سراحه بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣ ثم ألقي القبض عليه مرة أخرى بتهمة التزوير ومؤخراً أُفرج عنه بعد أن قضى عشر سنوات تقريباً في (القلغ[١]). لمحتُه في المرة الأولى يتأرجح في المنطقة، ظننته لوهلة مريضاً فأشفقت عليه كثيراً، لكن علمت بعدها أنه زبون دائم لأبي جمال[٢] وللصيدليات المتواطئة التي تزوّده بالمهدئات- ترامال، توسيلار- وغيرهما، فكان يسبح في عالم ثانٍ خمساً وعشرين ساعة في اليوم !

لا إلــه إلا الله، لا إلــه إلا الله، رفعنــاه وانطلقنــا لتشــييعه وســطَ صرخات أخواته اللائي مزّقن ثيابهنّ مع التفاتات أصدقائه مؤيد وعادل إليهنّ والتي تخللتها نظرات وغمزات وعض أطراف شفاههم، فتعثر عادل وكاد أن يوقع الجثة لكونه في المقدمة فدارى الأمر قائلاً بصوت عالٍ: "خفيف والله يا مروان خفيف". ثم أخرج مؤيد هاتفه وبدأ بالتصوير حتى أتممنا دفنه.

بدأ الشيخ بالدعاء له وقبل أن ينتهي من الدعاء جاء صوت عادل مختنقاً بالبكاء: "حاللوه وواهبوه"، ثم أتبع قائلاً: والله كان يصوم يومي الاثنين والخميس! وكان المرحوم يحبّ الناس وفعلَ الخير وأنا أحسستُ بموته قبل ثلاثة أيام حينما كنا سوية في الشلالات نشم الهواء النقي عند أحد أصدقائنا، وقال إن حياتنا أيام معدودة والذكي الذي يستغلها، وأوصى أن يدفن بجانب والده جبار، وأن تُزرع شجرة آس فوق قبره. هممنا بالمغادرة

فالتفتُّ لأجد مؤيداً وعادلاً يلتقطان سيلفي على قبر مروان وهما يبكيان ويباعدان بين إصبعيهما السبابة والوسطى بشكل أفقي.

السيناريو المتكرر لرؤية الميت في المنام يحضر دائماً في مثل هذه الوقائع، فبعدما يتوفى شخص ما بيومين أو ثلاثة يجب أن يراه أحد أفراد العائلة وهو يرتدي الأبيض وحوله أشجار وورود وهو يلوّح بيده ويبتسم فرحاً قائلاً: إنه مرتاح جداً وإنه تبوّأ مقعد صدق عند مليك مقتدر. فيتحول كلّ من في البيت إلى ابن سيرين ويفسرون الحلم بالجنة الموعودة للمتقين، ويعم الفرح في اليوم الثاني ويبدؤون بتقسيم الصدقات التي عادةً ما تكون إناء لبن مرصّع بالتمر.

انتهى مجلس العزاء فاصطحبتُ والدتي لنعزي أم مروان وعائلته، جلسنا وتبادلنا أطراف الحديث عن مصاعب الحياة والغاز والنفط والچولة والخبز...الخ، وفجأة فُتح باب إحدى الغرف وخرجت إحدى أخواته منفوشة الشعر وعيناها متورمتان وهي تبكي فرحاً قائلة: رأيت مروان رأيت الغالي. انتفضت الحاجة رازقية من مكانها فجلست أخته تقصّ علينا رؤياها قائلة: رأيته بِرداء أبيض حوله أزهار الشقيق وأشجار نخيل يتدلى منها الرطب، وسماء زرقاء وأنهار، وطيور النورس تحلق فوقه، ولوّح بيده وابتسم، وأشار إلى رجلٍ ظهر من خلفه يرتدي جلباباً لونه أخضر وفي وسطه حرف (T) باللغة الانكليزية، وفجأة استيقظتُ. فكبّر الجميع وترقرقت أعينهم بالدموع فقالت أختها الكبرى جازمة: مروان في الجنة وهو مرتاح الآن في قبره، لكن ما لم أفهمه من الحلم هو وجود هذا الشخص

صاحب الجلباب الأخضر. فأجبتُها بثقة وعتاب: ألا تعرفيه؟ فهزّت رأسها نافية، قلت لها: إنه أبو جمال أحد الأولياء الصالحين.

***

(١) القلغ: كلمة تركية معناها السجن.

(٢) ابو جمال: بائع مشروبات روحية في منطقة الشلالات بمدينة الموصل.

المحتويات

ارلنغتون ٧
التعويذة ١٢
الجيب الحصين ١٦
الملك السرسري ١٩
كمال اجسام ٢٣
بريمز ٢٥
ترامادول ٢٨
جون سينا ٣١
نص كباب ٣٥
18 + ... ٣٨
بيض غنم ٤٠
نفحات ايمانية ٤٤
هوت بيرد ٤٦
مركبة فضائية ٥٠
هيلاري في حمام علي ٥٢
مذلة حمورابي ٥٥
لوسيفر ٥٧
مستر فاتحة ٦٢

من شارع حلب يبدأ التغيير ٦٥
شيراتون..... ٦٧
دمبلة..... ٧٢
فاليوم شائخ..... ٧٧
قبر متحرك في مستشفى الجمهوري..... ٧٩
كولونيا..... ٨١
دعاء دليفري ٨٤
رادار ٨٥
الصيديلي FBS ٨٨
زاجل G7 ..... ٩٠
احلام3XL ٩٢
سكود ٩٥
ربع اخمس..... ٩٨

دعيت للعمل في قسم الأخبار بفضائية سما الموصل وهناك تعرفت على محمد طلال أول مرة مراسلا يحمل دفتر ملاحظات وقلما يسطر فيه تقاريره ولأنه كما هم شبابنا هذه الأيام بمنأى عن اللغة السليمة لا يكاد يخلو تقرير يكتبه من مفردة (تبقى) ولما لم يكن محمد يحلم كالذين ينبهرون بنصوصهم الأولى على الورق ويتوهمون أنهم سيتعبون الأكف بالتصفيق لهم اندفع محمد إلى القراءة المضاعفة لكتب اللغة والأدب ومرن قلمه الجامح على الكتابة ولم تمض السنة حتى وجد ما يحمله إلى جريدة آفاق الموصل ليحجز عموده يوميات جي أم سي مكانه على صفحاتها

جديد محمد وجدته مخطوطا وصلني على جناح الفيس بوك بعنوان (السابعة بتوقيت زحل) القصة الفنتازيا الرائعة التي حملت عنوان المجموعة في الحقيقة شدني سردها المتماسك ووصفه ألجميل لدقائق واقع منسي نفض الكاتب الغبار عنه بضمير متوقد يعيش شخوصه وإحداث نصوصه ببراعة محترف قلمه كاميرا عالية الجودة تطل على المدينة من منارة الحدباء وباشطابيا ويحرسها الثور المجنح و هشام سيدان وواثق الغضنفري

محمد طلال كاتب واعد ينتمي إلى الموصل بكل خلية من خلاياه وفي كل سطر من سطور مجموعته حقا السابعة بتوقيت زحل عمل رائع يستحق القراءة وتحتاجه المكتبة الموصلية إبداعا وأرشيفا وحبا نابعا من أعماق الروح لترابها

فارس الغلب